

الفصل الثاني عشر

« الإسكندرية . نيقوسيا . الرحيل إلى قبرس . »

« موت رئيس الاسبتارية »

« انتخاب خليفته »

...

مكثت في القاهرة ثلاثين يوماً ثم غادرتها بعد أن استأذنت السلطان « ونيكولودى كونتى » الذى سألنى أن أوصل إلى البندقية بضع رسائل حملنى إياها ، كما استأذنت مضيفى كبير المترجمين وزوجته وأطفاله الذين عاملونى كما لو كنت واحدا منهم ، ووصلونى بكثير من الهدايا التى أخذتها معى لاسيا قطنين هنديتين وبيغاوين وبعض العطور وأشياء أخرى ، من بينها فيروزج لا أزال محتفظا به ، كما زودونى أيضاً بأنواع من الزاد للاستعانة بها فى رحلتى . غادرت القاهرة وركبت النبل ، حتى إذا بلغت المكان الذى يتفرع عنده إلى فرعين تركت الفرع الأيمن الذى يؤدى إلى دمياط التى كنت بها من قبل ، ونزلت فى الفرع الآخر ، حتى أدركت مكاناً قريباً من الإسكندرية اسمه « رشيد » ، ومنه وصلت إلى الإسكندرية ، وهى مدينة رائعة جداً فبقيت فيها ثلاثة أيام تأمل من المكانين المقدسين اللذين ولدت وبأحدهما سانت كاترين واستشهدت فى الآخر الذى رأيت فيه مرداباً سدّ القوم بابه ، ويقال إن به العجلة التى شدوها إليها .

والمدينة ميناء بحرى عظيم ، ومكان كبير لاستقبال النصارى القادمين والراجلين على السواء ، ولما شاهدتها ملياً سافرت برا إلى دمياط ، لكنى لم

قف على أثر للسفينة التي أعطانها ملك قبرص ، مما اضطرني للبقاء ثمانية أيام في انتظار وصولها لأنها كانت قد أبحرت مصابقة للشاطئ حتى بلغت بيت المقدس .

أولاً أنفذت إلى والي دمياط ماحلته إليه من رسائل السلطان وكبير المترجمين فقد تلقاني بالاحترام العظيم ، كما بعثت أسأله عما إذا كان لديه جلد تمساح لأرسله إلى ملك قبرص استجابة لسؤاله ، فقدم إلى جلد تمساح اصطاده حديثاً ، غير أن رأيته كانت شديدة الكراهية ، ولم يكن أحب إلى نفسي من أن آخذ معي ابنة والي اللطيفة بدلا من حمل جلد هذا التمساح ، وعلى أية حال فقد ركبت السفينة التي اتخذت باسم الله في البحر بجراها حتى وصلت بعد سبعة أيام مدينة « ألباف » فأرسيت بها ، وكانت مكاناً أبعد ما يكون عن الصحة ، ووافق يوم وصولي بالذات موت أحد الأساقفة واثنين من رجاله ، وحدث الرب على أنني لم أكد أضع قدمي على الأرض حتى كان في استطاعتي الرحيل على مطايا الأسقف ومعاونيه ، ومضيت قدما إلى بلاط ملك قبرص في نيقوسيا ، وقد سبقني المترجم الذي أمدني به الملك ليعلمن مقدمي إلى الملك وكبير أساقفته ، فبعثنا إلى يطلبان منى البقاء تلك الليلة في أحد الفنادق ، حتى إذا انبجج صباح اليوم التالي لقياني لقاء يتمثل فيه التشريف ، وكان الأمر كما قالا .

وصادفت في الصباح — وأنا في طريق إلى القصر — كثيرين من كبار رجال البلاط الملكي الذين خفوا لاستقبالى وصحبوني إلى حضرة الملك^(٧٧) ، فلما وصلت إلى هناك ألقىته هو والكردينال ومعهم طائفة كبيرة من الأعيان ، فتلقوني أحسن لقاء وأحاطوني بالرعاية والمودة حتى لكأنني قد ولدت بينهم ، وحمدوا الله على سلامة عودتي بعد هذه

الرحلة الطويلة المدى ، وشكروني نيابة عن الملك لما قت به من الخدمة له ، وقدّموا لي كل ما طلبت ، ثم استأذنت الملك ، فاستصحبني القائد الذي كان حاضراً المجلس وأخذني إلى محل إقامته كما حدث في المرة السابقة ، حيث أكرمت وفادتي إكراماً عظيماً .

وفي صباح اليوم التالي حدثت ضجة كبيرة بين الناس ، وهرع كل واحد إلى حل السلاح حتى الكاردينال نفسه وأخته السيدة إينيس وكثيرون من كبار رجالات المملكة : ثورة على الملك ، هادفين من وراء ذلك قتل أحد أوصيائه ، فإن لم يستطيعوه فأفسره ، وكان اسمه « يعقوب جيري » الذي كان يتولى منصب القضاء ، وإذ ذاك هرب الملك إلى حصن من الحصون الواقعة في أحد أطراف المدينة يسمونه « بالقلمة » ، بيد أن الناشرين حاصروها مطالبين الملك بعزل صفيته من البلاط ومنعه مدى عام من العودة ، فأقسم الملك على ذلك وبر بما وعد ، فانفض الناس إلى بيوتهم .

فلما كان اليوم التالي بعث الملك في طلبي وسألني - في حضرة الكاردينال وجماعة من النبلاء - أن أنسلم منه كل ما يرضيني ثمناً لرحلتي ، فأجبتته بأنني لقيت من رعايته الكثير الذي يكفيني ، وأن عندي من المال ما يسد نفقات عودتي ، والتمست منه أن يأمر القوم بمنحى ضمان مرور وتجهيزي بسفينة لحلي إلى رودس ، وأخذت أنهباً للرحيل ، وأخذ هو من جانبه يعمل على تعويق ، إذ رغب في أن أبقى مدة ثمانية أيام على الأقل ، فلم أجد حيلة إلا الرضاء بما أراد ، بنفد أن أدركت أن في استجابة هذه الرغبة ما يسره ويرضيه ، وفي أثناء هذه الأيام الثمانية أخذت أعظم قسط من الراحة ، وجهاز القوم مركبا لحلي ، ثم أذن لي الملك في المغادرة (وإن كان ذلك الإذن في

في الحقيقة على كره منه) وزودني بشماره الذي لازلت محتفظا به ، وأمدني بمشر قطع من قماش وبر الجمال والتيل الجميل ، وأعطاني فهداً ومقادير ضخمة من الزاد تكفي مدة عام أستعين بها في رحلتي إلى رودس .

وفي أثناء وجودي هناك وفد على الملك سفيران : أحدهما من ناحية دوق سافوى ، والآخر من قبل أحد أدواق ألمانيا ، وكلاهما يعرض على الملك أن يزوجه ابنته إن رغب الملك في ذلك ، ولم أسمع خاتمة هذين العرضين ، بيد أنه يقال إن زواجا آخر قد تم وقد تلهف على إتمامه كبير فرسان رودس نيابة عن إحدى بنات كونت أرجيل في أراجونه ، وهي أخت زوجة الأمير دوق «بدر» الوصي على عرش البرتغال ، وبدى لي أن المشروع الذي كان أدنى إلى نفوس أعضاء مجلس الملك هو الزواج بابنة دوق سافوى ، وأعتقد أن هذا هو المشروع الذي تهيأ له النجاح (٧٨) .

. . .

وملك قبرص ما زال شابا في السادسة أو السابعة عشرة من عمره ، ضخيم البنيان ، غليظ الساقين غلظا حتى ليكاد سمعها عند العقبين يبلغ محيطهما عند الفخذين ، ولكنه رقيق الحاشية ، على جانب كبير من الإدراك والفهم لا يتكافأ مع صغر سنه ، كما أنه شديد المرح ، قوى البنية والتركيب الجسماني ، وهو أبرع ما يكون في ركوب الخيل ، ولو لم يكن بلده غير صحى لأسعدني أن أعرض عليه نفسى للقيام بخدمته فترة من الزمن ، بيد أنه يكاد يكون من المستحيل على الغريب أن يعيش في مثل هذا القطر المنكود ، فكانت هذه العوامل وغيرها تحتم على العودة إلى قشتالة للمساهمة في حربها ضد المسلمين ، ومن ثم اضطرت لتابعة رحلتي بأسرع ما وسعنى الجهد .

غادرت مدينة نيقوسيا وبلغت « سيرينا » حيث كان في انتظارى مركب
أعد لنقلى إلى رودس .

وسرينا مدينة قديمة أسسها أخيل وسميت باسمه ، وهى - رغم صغرها -
منيفة الجانب محصنة الأسوار ، ولها صرفاً طيب وإن لم يكن بالكبير ،
وأمامه سلسلة تغلقه وتمنع الدخول إليه ، وتقوم على هذا المأصر حراسة قوية ،
وكان الملك قد هرب هو والكردينال وعمه والسيدة إينيس وكثيرون سواهم
إلى هذا المكان حيث وقع الملك جانوس فى الأسر ، ^(٧٩) وهو أصح أصقاع
جزيرة قبرص حين تهب عليها الرياح الغربية ، وقد وجدت فيه سفينة تجارية
هى التى أمر الملك بإعدادها لنقلى إلى رودس ، وأخرى معها عملة بالمناجر ،
فغادرنا المرفأ ؛ حتى إذا كانت الظهيرة بلغنا طرف « رأس بيغانى » ، وإذ ذاك
خرجنا إلى البحر عن طريق خليج « ساتاليا » المؤدى إلى تركيا ، غير أنه
قبيل الساعة الثانية أبصرنا غراباً تركياً قادماً تجاهنا وفى نيته الاستيلاء علينا
وتحطيمنا ثأراً لإحدى سفنهم التى كان الكتلان قد أخذوها خارج ميناء
قبرص ، فنشرنا الشرع وأعملنا بكل قوائنا بالمجاديف ، وفعل الأتراك فعلنا ،
ولم نترأخ فى خلال ذلك عن الدعاء والصلاة ، ولكن أيدينا كلت من
التجديف ، وكان معى بحار من إحدى المراكب الكتلانية قتل ابن أخى
الربان ، وقد حكم عليه بالشنق بصارية المركب ، إلا أن الحبل انقطع لتقل
وزنه ، فالتصت من الربان أن يهبى إياه سبياً وأن الرب قد فعل الكثير له ،
فقبل الربان طلبى ، وكان هذا وسيلة نجاتنا ، إذ كان هذا الكتلانى بحاراً
ماهرأ فأسرع بالقارب مخففا إياه مما عليه حتى استطاع الإفلاع قدما أحسن
من الأول ، إلا أن المركب الآخر الحمل بالبضائع لم تطرح شحنتها فأبطأت

وراءنا، حتى إذا كان وقت الغروب وقعت في قبضة الأتراك وأغرقوها هي وجميع بحارتها .

وفي أثناء الاضطراب الذي أعقب هذا الحادث توفر لدينا الوقت - لنزيد قليلاً من المسافة التي تفصلنا عن العدو ، فلما شرع الظلام يمس طنبه على الأفق أشرعنا أكثر ما استطاع إشرعاه من الشرع ، وأخذنا أماكننا إلى جانب المجاديف ، وعملنا ماوسعنا الجهد ثم طوينا القلاع حين أرخى الليل سدوله ، واستدرنا يميناً في هدوء حتى لا يسمع صوت المجاديف ، وإذا ذاك مر الغراب التركي دون أن يرانا رغم أنه كان على مقربة كبيرة منا ، وقال البحار إنه ينبغي علينا أن نغير وجهة سيرنا لأن الغراب لا بد وأن يرسو في انتظارنا ، واعتقدنا صحة قوله لأن مركبنا كان صغيراً جداً ، وأننا في أيديهم ، ومن ثم انطلقنا إلى عرض البحر ورأينا الغراب يدنو من الساحل ، وإذا انتصف الليل هبت الريح الجنوبية ، وأخذت الأمواج تدفعنا إلى الأمام تارة وإلى الوراء أخرى ؛ ولكم كنت أوتر أن أقع في أيدي الأتراك من أن أغوص في أعماق البحر ، وأرادوا مني أن أقذف بواحد من رجالى من على ظهر المركب بيداً أننا دافعنا عن أنفسنا دفاعاً قوياً ، وإذا اندفعنا أمام العاصفة فقد اندفعنا إلى « قشطيل الراج » ووصلنا إلى هناك في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، ووجدنا أن الغراب التركي قد غادره قبلنا بساعتين ، فأرسينا هناك بمرفأ صالح ، وتسلفنا القلعة ، وأخذنا في الاستجمام بعد أن كتبت لنا النجاة من خطر كبير .

وقلعة قشطيل الراج هذه في أيدي فرسان رودس ، وهي جزء من ولاية أرمينيا رغم أنها جزيرة صخرية شديدة الوعورة ولا يستطيع أى حيوان تسلقها ، أما عند السفح — عند المدخل إلى الميناء — فتوجد بعض مناجم الملح التي تغلّ دخلاً كبيراً لفرسان رودس .

غادرنا جزيرة قشطيل الراج وأخذنا سمتنا إلى رودس ونحن مازلنا في

خوف مقيم من هذا الغراب التركي، كما صادفنا جوا قلباً، بيد أننا بلغناها في مدى يومين ودخلنا الميناء، وذهبت أنا للإقامة مع الأخ « نينودي كابريرا » وهو فارس عظيم قشتالي المولد، كما أنه أحد فرسان القديس يوحنا وإن يكن أكثرهم جميعاً ثراء وأعظمهم شهرة، فلتقاني بسرور زائد ومودة كبرى، وعاملني أندى معاملة، وأحسب أنه لولا الرقعة التي أمدني بها لمتُ بعد ما تكبدته من المشاق، بل إنني ما كنت لأجد في بيتي الخاص أكثر تقوى أو أحسن خدمة مما وجدت عنده.

وفي غداة وصولي ذهبت لرؤية السيد الأكبر أنطونيو^(٨١) فلوفيان كبير فرسان الاسبتارية لأناوله الرسائل التي حملني إياها ملك قبرص إليه عن شئونه، وصحبنى الأخ « نينودي كابريرا » وغيره من الفرسان القشتاليين والفرسان التابعين للأمم أخرى، لاسيما الفرنسيون الذين هم كثيرو التعلق بشعبنا، فلما وصلت إلى هناك وجدت السيد الأعظم وقد اشتدت به العلة شدة تدنيه من الخطر، وكان يشكو من آلام في الكبد، ولكنه سرعان ما أنقذ ردوده إلى ملك قبرص، فاستأذنته وعدت إلى حيث أقيم، وقد مات السيد في تلك الليلة من علته، وبينما كان يعالج سكرات الموت جاءه — كما هي العادة — القادة واللعرفون وفئة معينة من فرسان المجلس وسألوه بحق قسمه وبضميره أن يسمي لهم الشخص الذي يريد استخلافه من بعده رئيساً أعظم للفرسان، وأن يكتب اسمه ويختمه بخاتمه حتى يبقى سرا؛ ثم أخذوا خطه ووضعوه في مكان أمين حتى لا يعرف أحد مضمونه سوى للعرف، وجرى عادتهم أنه إذا مات السيد عمدوا إلى فض الورقة المختومة، فإذا جاء وقت انتخاب خليفته عدَّ صوت السيد للتوفى — كما يقال — بصوتين.

دفن هذا السيد يوم وفاته في ساعة القداس ، وكانت المراسيم الجنائزية تتفق وشخصه ، وحمل نعشه كبار الفرسان على أكتافهم وهو مجال يبسط الرحمة الأسود ، وسار أمامه وخلفه ركب طويل ، أما الذين لم يتسن لهم الوصول إلى النعش فقد ضَمُّوا أيديهم إلى بعضها ، وكان السيد الأعظم مرتدياً ملابسه كعادته متقلداً سيفه ، ومهمازاه على قدميه ومسبحته في يده ، ودفنوه على هذه الهيئة ، ثم أمروا بعدئذ بفتح جميع الأبواب وأجلسوني في حجرة أو صدوها من الخارج ، وأعطوني طعاماً للأكل ، أما رجالى الذين معى فقد أرسلوهم إلى المدينة مدثرين كألوف عادتهم وقد تمنطقوا بسيوفهم جرياً على سُنَّتِهِمْ ، ودخلو الكنيسة لانتخاب الرئيس الجديد الذى يتم — كما يقولون — على هذه الطريقة .

وأخذوا من كل أمة من الأمم التى يتألف منها الفرسان ثلاثة أشخاص هم فارس وقسيس ورجل علمانى أو أخ خادم ، ويوكل أمر اختيار هؤلاء الثلاثة إلى جميع الحاضرين الذين يبدأ كل منهم فى الاعتراف وتناول القربان ثم القسم على الآثار المقدسة التى عندهم بأنه سوف يقيم اختياره على أساس من الطيبة والصدق ، كما يقسم المختارون أيضاً بأنهم سينهجون نهجاً رائده الخير والحق فى من يقع عليه اختيارهم ، ثم ينتخبون ثلاثة عشر فرداً من الذين يقومون بدورهم — باختيار سبعة يقسم كل منهم باتباع الحق ، ثم يسجل اسمه — دون أن يكلم زملاءه — فى ورقة مطوية ويضعها على مائدة أمام هذا المعترف الذى — كما قلت — يمسك بصوت السيد الراحل . ويتم هذا فى حضور جميع الفرسان ، وحينئذ يقوم المعترف فيتلو الأسماء التى آثرها السبعة

واسم من رشحه السيد الأعظم ، ويعتبر صوت السيد - كما قلت - بصوتين ،
فن نال الأغلبية أصبح الفارس الأعظم .

بقى الجمع ملتئماً طوال ذلك اليوم وكذلك الليلة التالية حتى الفجر ، وقد
اعتقدوا جميعاً - بل وقالوا - إن قائداً أعظم كان حاضراً هناك لابد وأن
يصبح السيد ، وأنه لم يكن ثمة داع لإجراء إنتخابات ، وبهذا كان من
المؤكد اختياره ، وحدث قبل أن يطلع الفجر بساعة أن سمعت ضجة كبرى
دوت بها الكنيسة والمدينة معاً وصحبها دق الأجراس ونفخ الأبواق ،
فجاءوا إلى في حجرتي التي أغلقوها على وحملوني إلى الكنيسة ، وقد انتظم
الكل في الموكب فجعلوني أحمل « ريشة » الجماعة إلى المذبح الكبير ،
وصاح الشخص الذى يحمل أسماء المنتخبين : « أدوا الشكر لله ، فإن سيدكم
هو من أهل أوثرن^(٨١) » ، وعلى الرغم من أن الظلام كان لا يزال سائداً
إلا أنه أمكن رؤية كثيرين وقد اصفرت وجوههم حسد وغيرة .

فلما تم ذلك غادرا الجميع الكنيسة ، وكان النهار قد تبلى نوره ، فذهبنا بعدئذ
إلى مقر الجمعية وفتحوا الأبواب ، وانطلقنا إلى المدينة مع جميع الناس ووضعنا
الريشة على برج البناء ، وكان السيد الجديد فارساً قديماً قد أخلص في خدمة
نظامه وعلى جانب كبير من الفضيلة ، فلما كان اليوم التالى تشاوروا فيما
بينهم وأمروا أن يبحثوا عنه ، وسلحوا أربعة مراكب رحلت ميمة في الحال
شطر « أوثرن » حيث كان موجوداً ذلك السيد الذى اختير كبيراً
لفرسان الاسبتارية .

والواقع أن وقوع أى خطأ أو عيب فى هذا الانتخاب يكون مدعاة

للدهشة ، ذلك لأنهم يقيمونه على أساس بعيد كل البعد عن التحيز أو
الصدافة أو الكراهية ، هذا إلى أن الجمعية موقرة جداً وجيليلة القدر ، وهناك
كثيرون من أعظم الرجال الذين يكونون على الدوام مستعدين للدفاع عنها
وحمايتها وذلك أمر لا مناص منه لمجاورة القوم للترك من ناحية ولسلطان
مصر من ناحية أخرى ، ومن ثم كانت سلامة النظام وأمن الطائفة تتوقف
على شجاعة المدافعين عنه .

الفصل الثالث عشر

« السفر إلى القسطنطينية . غرق السفينة . القتال بين الكتلان »

« والجنوبة ، وصول سفارتين من يزنطة »

« بعض الجزر والمدن »

...

كانت هناك سفينة راسية في ميناء « إيثونا » برودس تعاقدت مع ربانها على نقلى إلى القسطنطينية ، ومن ثم أبحرنا ووصلنا إلى جزيرة « ساموس » الواقعة في بحر الأرخبيل ، تاركين على يميننا قلعة « سنت بدرو » الموجودة في الأرض التركية الأصلية ، وعلى يسارنا جزيرة « كوس » التابعة لفرسان « القديس يوحنا » برودس ، ثم ركبنا سفينة تابعتها سافرتنا إلى جزيرة خيوس ، فلما بلغناها أخبرونا بأن السفن والأغربة التي جاءت من « الجمع » لحمل إمبراطور اليونان إلى أوروبا قد ألقت مراسيها في ميناء خيوس ، ففردنا شراعنا وأبحرنا والجزيرة على يسارنا ، غير أن الريح لم تبحر بما نشتهي مما أرغفنا على إلقاء مراسينا بجانب الجزيرة ولبثنا هناك تلك الليلة ، حتى إذا كان الصباح أبصرنا غرابين كبيرين يقتربان منا وبصحبتهم قاربان خفيفان ، فلما حاذونا أمرونا بالعودة إلى خيوس وإلا قاتلونا ، وما كان لنا إلا أن نستجيب لهم ولم نمص لهم أمرا أو نقاومهم ، وقد فعلوا هذا حتى لا نقف على سر ما يفعلون ، ذلك لأن الجنويين قد أخذوا هذه الأغربة وسلحوها قاصدين الذهاب إلى الإسكندرية لأخذ غرابين كتلانيين بها « كازاساجس » و« سوفينت » ، ومن ثم يكن لنا من حيلة إلا العودة بالسفن والرسو بالميناء ، وبقينا به طول اليوم ، فلما انتصف

الليل هبت عاصفة هوجاء ، وبينما كنا نكافح بلا أمل انفلت مركبنا من الحبل وعلق بسفينة كبرى كانت النار قد التهمت منها من قبل وغرقت منذ وقت بعيد خلال الحرب التي كانت مشبوبة الأوار بين البنادق والجنوية ، وبقيت بعض أجزائها ظاهرة للعيان فوق سطح الماء ، فاصطدمت بها سفينةنا وتحطمت وسقطنا في اليم ، وكان الوقت إذا ذاك نهاراً ، على أن البحارة الذين استبد بهم الفزع من شدة هيجان البحر استطاعوا الوصول إلى الشاطئ بعد لآي مشقة ، أما أنا فقد بقيت — أثناء غرق السفينة — في الماء متشبثاً برمش طاف على سطحه ، وإذا ذاك أصدر بعض السادة الذين كانوا هناك (وهم نيكولادى مينون والريان وبعض الأساقفة والسادة الفرنسيون) أمرهم بإنقاذى ، لكن لم يجرؤ أحد على الأقدام على هذا المخاطرة ، غير أن بعض البشكنس تناولوا قارباً صغيراً من أحد الأغربة وقدموا نحوى ثم عادوا إلى اليابسة ، وكانت الروح قد بلغت التراقى من الماء والبرد إذ كان الوقت عيد الميلاد ، وقد وجدت أسقف « فيزوا » بالبرتغال^(٨٢) فأخذنى معه وقام بنجديتى ، وهنا سمع السادة الفرنسيون منى نبأ موت كبير فرسان رودس ، ثم جاءت ثلة من فرسان النظام ومعههم قائد الأخ الأعظم « بولاك » ، ولما هدأت العاصفة وسكن البحر أخذوا هذا القائد إلى رودس فى أحد الأغربة وأصبح مارشالها ، وكان هو نفس الشخص الذى جاء برسالة^(٨٣) البابا إلى قشتالة ثم فقد فيما بعد إحدى عينيه ، ولم يكن فقدته إياها حين قابلته ، وكان فارساً رائعاً جداً ورجلاً خفياً الشهرة .

بقينا فى خيوس حتى نهضت الأغربة لقتال الكتلان حيث أبحرت إلى ميناء الإسكندرية فلما بلغتة وجدتهم هناك ، وقد التحم الجمعان ، وتمكن الكتلان من إغراق إحدى السفن ، وأما الغراب الآخر — وهو أكبر من الفريق

وأشدّ قوة منه - فقد كان للأسرى، وظل الفريقان يحارب أحدهما الآخر طول النهار والليل، والمسلمون يشاهدون القتال، فلما كان الفجر هبت من ناحية البر ريح طيبة فركب الكتلانيون البحر وانطلقوا، ولم يجرؤ الجنوبية على متابعتهم لما أدركوه مقدماً من المضرّة اللاحقة بهم إن اشتبكوا وإياهم في قتال على أديم الماء، وحينذاك مضى الكتلانيون إلى رودس وعاد الجنوبيون إلى خيوس حيث كنا لانزال موجودين، ولما سحبنا سفينتنا إلى الشاطئ أعدنا ترميمها وإن فقدنا ما أوسقناها به من البضائع، كما ضاعت منى أشياء كثيرة جلبتها معي من الشرق، وأخذ السفراء ستمهم وغادروا الميناء ومضوا إلى «الجمع» الذي كان منمقداً إذ ذاك وأرسوا في «نيس» بمقاطعة بروفانس، وكانت هذه السفارة إحدى ثنتين جاءنا لفضل إمبراطور اليونان للحصول على تفاقه مع «الجلس الكنسى»، وكانت سفارة بالغة الزينة والروعة مؤلفة من رجال أحسن القوم اختيارهم، غير أن خبر مقدمها ما كاد يترامى إلى سمع البنادقة ويروا التحامل الكبير الذى أثير ضد البابا أبوجين - الذى هو فى الأصل من أبناء تلك المدينة - حتى بمثوا بسفارة ثانية إلى الإمبراطور، والتقت السفارتان فى القسطنطينية وأشرعنا السلاح تأهباً لقتال كل منهما الآخر، وحينذاك أعلن الإمبراطور أنه لن يمضى مع أى واحدة منهما اعتزاماً منه الرحيل على ظهر سفنه الخاصة، وسألها مفادرة بلده وعدم اعتراض سبيله وإلا أضرب عن الرحلة وكفّ عن السفر، فاستجابا له، ومضى مندوبو سفارة الجمع الكنسى إلى خيوس، بينما اتجه البنادقة اتجاهاً خيل للناس معه أنهم يريدون المضى إلى البحر الأسود، ومع ذلك فقد تم الاتفاق بينهم وبين الإمبراطور، إذ ما كاد الأولون يرحلون حتى قدموا هم وأخذوا الإمبراطور فى مدى أيام قلائل وحملوه إلى ميناء البندقية^(٨٤) بإيطاليا.

أقمت في جزيرة خيوس هذه عشرين يوماً عاطلاً بلا عمل أقوم به ، ثم شددت الرحال إلى تركيا مبتعداً كثيراً عن تلك الجزيرة حيث بلغت مكاناً يسمى « فوجافسكيا » الذي يقولون إنه أحد موانئ تركيا حيث توجد به جالية جنوبية ، وقابلت في هذا الميناء صديقاً لي كنت قد عرفتة في إشبيلية ، وإذا كان يتمتع بشيء من النفوذ بين الأتراك فقد سأله أن يرسل معي أحد رجاله إلى طروادة وأن يستأجر لي جياداً ، فلبى طلبتي ، وسافرت عن طريق البر مدة يومين وصلت بعدها إلى مكان يزعمون أنه طروادة ، بيد أنني لم أجد أحداً ما تمكن من إمدادي بأية معلومات عنها ، ثم جئنا إلى « إيليام » كما يسمونها وهي بقعة بحرية مواجهة لميناء « نفيدوس » ، ويزدحم هذا القطر بأجمعه بالقرى التي يأخذ بعضها بحجز البعض الآخر ، ويعتبر الأتراك المباني القديمة آثاراً لا يصح أن تمتد إليها يد المهدم ، ولكنهم يقيمون منازلهم بجوارها ، وكان الذي جعلني أعرف أن هذا المكان هو في الواقع طروادة القديمة هو منظر مثل هذه المباني العظيمة الدائرة وكثرة الرخام والأحجار ، وكذلك هذا الشاطئ وقد أطلت عليه من الجهة المقابلة ميناء « تينيدوس » وقيام تل كبير كأنما هو أثر لصرح مشمخر قد هوى ، ولم أستطع معرفة شيء أكثر من ذلك فعدت إلى خيوس حيث ألفت سفيتي قد أعيد ترميمها بصورة مكنتنا من الإبحار في مدى يومين .

وتتل جزيرة خيوس هذه كميات كبيرة من الصمغ ، وقد سكنها الجنويون الذين سلبوها من الفرسان ويسمى حكامها أنفسهم بالمايونيز^(٨٥) ، ولما كان هؤلاء الفرسان عاجزين عن الدفاع عن ذلك المكان فقد ارتضوا دفع الجزيرة للجنوية الذين يرفعون علمهم هناك والذين هم في حاجة إلى هذه الجزيرة في رحلاتهم إلى سواحل الشام وإلى الدردنيل .

* * *

غادرنا المكان وركبنا البحر، فأخذتنا من كل جانب عاصفة هوجاء أصابت المركب بعطب كبير ما لبث الملاحون أن تداركوه — وهم بارعون كل البراعة في هذا الفن —، فبذلوا جهدهم حتى أصلحوه على خير وجه ممكن، ومن ثم سافرنا تاركين على يسارنا جزيرة «ميتلين» وهى فى حوزة الجنوبيين أيضاً، وثنيينا برأس «سنت ماريا» وبلغنا جزيرة «تينيدوس» فألقت السفينة مراسها وغادرناها إلى البر .

وفى أثناء إصلاح العطب الذى ألمّ بالسفينة مضينا قدما لمشاهدة الجزيرة التى كانت تبلغ مساحتها قرابة ثمانية أميال أو تسعة، وهى مليئة بالأرانب البرية، وتزخر بساحات الكرم ولكنها جميعها قد فسدت، وتبدو ميناء تينيدوس حديثة البناء حتى لكأنما قد شيدها اليوم حذاق، وقد رصفت بالأحجار الكبيرة وقامت بها الأعمدة الضخمة، وهنا تجد السفن خير مرفأ لها، ورغم توفر إمكانية أخرى صالحة لرسو السفن إلا أن هذا الميناء هذا هو أصلحها كلها لوقوعه تجاه مدخل مضيق الدردنيل .

ويطل على الميناء تل كبير قد علته قلعة شديدة الحصانة كانت فيما مضى

سبب كثير من النزاع الناشب بين البنادقة والجنوبيين ، مما حمل البابا على الأمر بهدمها حتى لا تكون فى يد أحد الفريقين ، غير أن هذا العمل كان بلا شك أبعد ما يكون عن محجة الصواب لأن الميناء من أحسن مرفأء العالم ، إذ لا يتأتى لسفينة ما أن تدخل المضيق دون أن تلقى مراسيها أولا هناك لتتلمس للمدخل لشدة ضيقه ، ومن ثم فإن الترك الذين يعرفون كثرة عدد السفن التى تصل إلى هناك يساحون أنفسهم ويتربصون ثمت بالمسيحين ثم يثبون عليهم فيقتلونهم . ومن هنا يستطيع المرء مشاهدة كثير من مبانى طروادة ، كما أن جماعة معينة من الإغريق الذين يعيشون هناك يقومون بنقل الأخبار عما يجرى فى ذلك المكان .

رحلنا في اليوم الثاني، ووصلنا المضائق الشديدة الضيق، وتنسم المياه في الجانب التركي بشدة الضخوة، وتسمى هذه المضائق بالدردنيل، وهنا يوجد باب طروادة ومينائها، أما مياه الشاطئ اليوناني فشديدة العمق، ويقوم به برج « فيتبريو » حيث وجد أخيل مع « باتروكولس » أو كما يقولون هكذا كان يراد . والمضائق في هذا المكان ضيقة جداً مما يسر على المرء في اليوم الصفو أن يشاهد راية منصوبة على الجانب الآخر، وهكذا تابعنا السير عبر هذه البرازخ وخلفنا بعض المدن على الجانبين التركي واليوناني، ووصلنا إلى مدينة جاليبولي، وهي مكان بديع ومرفأ جيد ذو قلعة رائعة، وكان هذا أول ناحية استولى عليها الترك حينما اكتسحوا اليونان ولم يهدموا الحائط والقلعة بل تركوها قائمتين - وهو أمر لم يفعلوه في أية بقعة أخرى - حتى إذا حدث ودارت عليهم الدائرة استطاعوا النجاة .

. . .

غادرنا جاليبولي وجئنا إلى بحر «مرمرة» وهو عبارة عن بحر دائري داخل الأرض يبلغ عرضه قرابة ثمانية فراسخ، ويسمونه «مرمره» لأنهم يحملون منه إلى القسطنطينية كل المرمر الذي تحتاجه هي وأسوارها، وهذا البحر في يد الإغريق، ومن هنا وصلنا إلى بلد يدعى « اريجلي » وأخرى يسمونها «سلمبريا» وهما المكانان اللذان سمح الترك للإمبراطور أن يقيهما في يده في الأزمنة السالفة عطفاً عليه ولماؤنته لهم .

وفي رحيلنا في فجر اليوم التالي رأينا جبلا شاهق الارتفاع يبعد عنا أكثر من مائة ميل، وأخبرونا أنه جبل القديسة صوفيا بالقسطنطينية، وجئنا إلى مكان يبعد قرابة ميلين عن المدينة حيث قضينا به ليلتنا تلك، وفي الصباح التالي أرسلت

القارب إلى مدينة بيريه لأفصى نبياً مقدماً إلى ربان إحدى السفن واسمه «جوان كارو» وهو من أهل أشبيلية ومن أصدقائي الخالص وأعرف أنه موجود هناك في بيريه، فقدم هو وأصحابه في زوارقهم لتحتي، وأردت أن أتوجه في الحال لأقدم احتراماتي للإمبراطور، غير أنهم ألحوا على كثير أن يأتوا إلى أجلهم بالعار إذا لم أذهب أولاً إلى بيريه حيث توجد دورهم، وأنه هذا واجب يتحتم على أدائه، فنزلت أنا ورفاقي في قوارب القشتاليين، وجاءت سفينتنا معنا ودخلنا ميناء القسطنطينية وغادرناه، ومضينا في سبيلنا ثم أرسينا عند رصيف «بيريه»^(٨٦) وهو من أحسن الأرصفة في العالم، وتستطيع أية سفينة - مهما كانت ضخامتها - أن ترسو هناك في مياه عميقة صافية، وأن تلقى بسلامها على اليابسة، فأرست في صحبة القشتاليين وكذلك مع أصدقاء آخرين من أمم مختلفة وذهبنا لأداء الصلاة بالكنيسة، ووجدت الوالي البيرنظلي الذي يحكم المكان فاستقبلني استقبالا طيباً، مستفسراً إياي عن أخبار الغرب، وقرر أن كل ما أحتاج إليه لا بد وأن يجاب في الحال، ومن ثم رحلنا، فأقمت مع الربان القشتالي حيث أقيمت استقبالا فخافا في الواقع، وحين وصلت إلى هناك ألفت هدية ضخمة من النبيذ والطيور أرسلها إلى الوالي .

وفي اليوم التالي قدم لرؤيتي القشتاليون المقيمون في القسطنطينية وبيريه، وتذكرت منهم جماعة رأيتهم في قشتالة ومن بينهم «ألفون دي ماتا» وصيف مولانا «دون جوان» حفظه الله، فالتفتني أن أقدمه إلى إمبراطور طرايزون لأنه كان قد قدم مع سفراء الجمع الكنسي وإن كان قد غدى الآن في مؤخرة القوم، ثم تحدثت مع الإمبراطور^(٨٧) رغم أنه هو الآخر قد أصبح غير ذي موضوع، فقد نفى من وطنه مع أخته إمبراطورة القسطنطينية فقبل رجائي واتخذ من رجال حاشيته، وأعطاني في نفس اليوم قوساً وسهماً لازلت تحتفظ بهما .

الفصل الرابع عشر

القسطنطينية . الإمبراطور يوحنا باليولوجس . أسرة طافور .

قصة الحرب الصليبية الرابعة . استقبال طافور

في البلاط . مغادرة الإمبراطور إلى أوربة .

...

بعد أن أقت مدة يومين مستجماً ذهبت لأداء مراسيم الاحترام للإمبراطور القسطنطينية وبصحبتي جميع القشتاليين ، وارتديت أحسن مالدى ، وازيَّنتُ بشعار فرسان « إسكاما »^(٨٨) وهو رنك الملك جوان ، وأرسلت في طلب أحد مترجمي الإمبراطور ويسمى « جوان الأنيلي » القشتالي المولد ، ويقال إن الإمبراطور قد اختاره مترجماً لأنه كان ينشد له على الأرغن أغنيات قشتالية .

صحبنى المترجم إلى القصر الإمبراطورى ، وذهب ليعلمن إلى الإمبراطور خبر قدومى لرفع فرض الاحترام الواجبة له ، وأبقونى فى الانتظار مدة ساعة بعث الإمبراطور خلالها فى استقدام بعض الفرسان واستعد لمقابلتى ، ثم دخلت القصر وبلغت ردهةً أبصرته فيها جالساً على عرش وقد بسط تحت قدميه جلد أسد^(٨٩) ، وهناك أدبت فروض الاحترام للإمبراطور وأنبأته أن مجيئى إنما كان بقصد رؤيته ومشاهدة مملكته وللتعرف على بلاده وكبار رجالاته؛ وإن كانت علة حضورى الأولى رغبى فى اسكتناه حقيقة نسي الذى أنبئت عنه أنه نبع فى الأصل من هذا المكان، وأن لى عرقاً يمت لعرقه الإمبراطورى بوشيجة القرى ، وشرعت فى إخباره عن الطريقة التى قيل إنها سارت عليها ، فأجابنى فى الحال بأننى واجد كل ترحيب، وأنه مسرور جداً لرؤيتى، أما عما حدثته عنه بشأن أصلى فقد أمر

ياحضار السجلات القديمة حتى يتضح الحق الصراح عن كل شيء ، وسألني عن أخبار البلاد المسيحية وأسراها لاسيما فيما يتعلق بمولاي ملك أسبانيا وعن دولته وحربه ضد المغاربة ، فأفضيت إليه بكل مالمدي من المعلومات ، ثم استأذنت منه في الانصراف ودلقت إلى حيث أقيم .

وفي اليوم التالي بعث في طلبي سائلا إياي أن أمضى للصيد، وأرسل الجياد لي وإن معي ، فمضيت في صحبته ومعنا شريكته الإمبراطورة التي كانت موجودة إذ ذاك ، وأخبرني يومئذ أنه وقف على الأمور التي أردت الاستفسار عنها، وأنه سيأمر حين عودتنا من الصيد بأن يخبروني عن كل مايتعلق بها فشكرته، فلما كان المساء أبنأ من صيدنا وترجلنا عن جيادنا، وأرسل هو يطلب أن يمثل في حضرته أولئك الذين كلفهم بالبحث عن استفساراتي ، فلما جاءوه قالوا إنه حدث في القديم (ولا أذكر الوقت بالضبط) أن أحد أباطرة القسطنطينية بعث في أنحاء بلاده أمراً يقضى بأن يدفع النبلاء الضرائب ، وأن يؤدوا ماعليهم من الالتزامات والخدمات، وأن يقومون بإنجاز ذلك كله شأنهم في هذا شأن العامة ، ونظراً لأن هذا العمل قد عذبه النبلاء إساءة لهم وافتاآنا على حقوقهم فقد بحثوا الأمر مع ابنه الأكبر ووريثه ، وأغروه بالوقوف في صفهم والتحدث إلى أبيه الإمبراطور في وجوب تجنّب كل مامن شأنه أن يترك وراءه ذكرى كرهية واسماً بفيضاً ، ذلك لأن اقتراحاته في هذا الصدد كانت ضد النظام والعدالة ولن تؤدي بالنبلاء إلا إلى إرغامهم على حمل السلاح ضده ، وهو سبيل لا مناص لهم من السير فيه إذا ما أصرّ على تنفيذ أغراضه السيئة ، فاستمع الأمير إلى شكوى النبلاء ووعد أن يبذل كل ماوسعه جهده، ومضى إلى أبيه الإمبراطور متحدثاً ومتوسلاً إليه أن يمنعه كرمه من عمل هذا الفعل ضد نبلاء

البلد الذين يمدونه الحاكم، لاسيما وأنهم هم الذين يعينونه في مهامهم ويحلونه ، هذا بالإضافة إلى أنه بمعارضته إياهم يدفع ببلاده إلى خطر جسيم ومشقة كبرى ، ثم حذره من أنه سيجد نفسه في النهاية عاجزاً عن قرض إرادته عليهم، فلما صك هذا الكلام سمع الإمبراطور تأجج غيظاً واستشاط غضباً على ولده الأمير، وطرده من قصره ، ورحل بنفسه — كما يقولون — إلى مدينة أدريا نوبل التي هي اليوم مقر جيوش سلطان الترك وبلاطه ، فلما وصل إلى هناك كان نبأ هذا الأمر قد تردد في شتى نواحي الإمبراطورية، وسرعان ما شبت ثورة عارمة حول لواءها جميع النبلاء وأتباعهم، وتكاتفوا فيما بينهم فصاروا كلهم يداً واحدة وجعلوا الأمير على رأسهم ، ثم قدموا بجيش ضخم إلى القسطنطينية حيث كان الإمبراطور، واستغرقت هذه الرحلة خمسة أيام تقريباً ، فلما علم الإمبراطور بذلك خرج وعسكر بجميع رجاله ورتبت الصفوف الواحد تلو الآخر ، فأرسل الأمير مرة أخرى يلبثه من من أبيه ألا يكون سبباً في مثل هذا الجرح الدامي والحراب الكبير وإلا فلا سبيل أمامه إلا محاربته إياه ، فازداد غضب الإمبراطور عن ذي قبل قائلاً إن الأمور يجب أن تسير الآن كما هي ، وأنه مصمم على ما اعتزم. وجاعل الأمير ومن معه يدفعون حياتهم ثمناً لذلك العمل ؛ فلما رأى الأمير إصراره ، وأن الحرب موشكة على الاندلاع ، إتفق مع أبيه على أن يمضي الإمبراطور إلى القسطنطينية وأن يرجع هو نفسه « إلى أدريا نوبل » وأنهما حينذاك لا بد أن يصلا إلى شروط ، وفعل الأمير ذلك تحذوه الرغبة في تجنب محاربة أبيه وقتاله ، واتفق الجانبان على ذلك، وعاد كل إلى مكانه .

والآن وقد رأى الأمير أن لا سبيل سوى الحرب لنقض المشكلة فقد اتصل بأحد الأمراء وهو أخوه ، وحبّب إليه الوقوف إلى جانب الشعب قائلاً له إن

الرب لن يمسّه بأذى لمحاربتة أباه ، وإلاّ فالأجدنى له ألاّ يقيم ببلد يقع فيه مثل
 هذا الأمر ، ومن ثم غادره إلى إسبانيا ، وبلغ قشتالة فى الوقت الذى كان
 الحسك فيه بيد دوق ألفونسو الذى غزا طليطالة ، والذى يسميه البعض
 بألفونسو ذى اليد المدببة ، وفى هذا المكان الجديد عُرف الأمير باسم « كونت
 بدرو » ، وأنجب ابنًا سماه دوق « إستيفان إلان » ، فلما رأى النبلاء اليونان
 أنفسهم وقد حرموا من قائد كهذا القائد — لأنه كان فارساً عظيماً — ولأنه
 أثبت براعته بكثير من الأعمال الدالة على الروعة فى السلاح سواء فى أسبانيا أو
 قبل رحيله إليها فقد أخذوا أخاه الأصغر — رغم أنه كان لا يزال شاباً — وقبلوا يده ،
 ونادوا به إمبراطوراً على بلاد اليونان ، ثم ورحلوا به من مدينة أدريا نوبل بجميع
 رجالهم المسلحين ، وزحفوا على القسطنطينية قصد إجلاس هذا الشاب على
 العرش الإمبراطورى ، فلما أنبئ الإمبراطور بذلك فعل ما فعله من قبل ،
 فخرج من المدينة لصدّهم ولم يكن ثمت مندوحة عن القتال ، غير أنه غلب على أمره
 وحاقت به الهزيمة ووقع فى الأسر ، وقُتل كثير من رجاله وأخذ البعض الآخر ،
 ودخل النبلاء المدينة دخول الظافرين ، وأجلسوا على العرش الإمبراطورى
 مولاهم الأمير الصغير الذى استقدموه معهم ، وأقاموا حرساً قوياً على أبيه
 الذى مالّث أن مات بعد أيام قلائل من مرضه ، وبقي الأمير يحكم
 الإمبراطورية فى هدوء ، وجبّ القوانين التى فرضها أبوه ، وسنّ أخرى منح
 بها النبلاء حقوقاً أكثر من تلك التى كانوا يتمتعون بها من قبل ، ومن ثم
 يقال إنه لا يوجد فى أى بلد من بلاد العالم مثيل للحرية التى ينعّم بها النبلاء
 فى اليونان ، وأنه ليس هناك من رعية أكثر خضوعاً من اليونان الذين هم فى
 الواقع رقيق لطبقة الأشراف ، غير أن خطايا المسيحيين أدّت إلى إصابة الرعايا

والنبلاء على السواء بالعبودية المؤلمة نظراً لأن ساداتهم أصبحوا من الترك أعداء الإيمان.

* * *

أما الأمير الآخرفانه لما جاء إلى قشتالة احتفى به القوم احتفاء كريماً، وتلقاه الملك بالثشريف العظيم، ويقال إن الملك كان يتأهب في هذا الوقت لشنّ الحرب على المسلمين، فزوج الأمير من إحدى إخوانه الشرعيات، وألقى إليه بمقاليد حكم المملكة أثناء خروجه للحرب، ويقال إنه كان فارساً شريفاً، شديد البأس، بالغ الصراحة، غاية في الفطنة، وسموه «دون بريلان»، ويقولون إنه دخل طليطلة وأقام الملك بها، وزيادة على ذلك فإنه هو الذي استرد المدينة وردّها إلى الطاعة حين جاهرت بالعصيان وثارَت، فخارب العصاة وقهرهم، ويقولون أيضاً إن هذا هو السبب الذي كافأه من أجله أهل طليطلة بكل هذه الامتيازات التي لازال مواطنو طليطلة يتمتعون بها حتى يومنا هذا، ولما مات دفنه القوم في كنيسة الملوك القدماء في طليطلة، وحلّوا سقفها برسمه وهو على جواده وعليه رنكه وأسلحته، وهي ذات الأسلحة التي يحملها أقوى الفرسان وأجودهم «دون فرنانز الفارس» الطليطلي كونت «ألبا» لأنه منجدر مباشرة من صلب هذا الأمير اليوناني الذي جاء إلى قشتالة، كما أنني أيضاً أحمل نفس هذه الأسلحة لأنني أمت بعرق إلى هذه الأميرة، وأن «دون بيرو روز طافور» الذي دوى اسمه في الاستيلاء على قرطبة كان حفيد كونت «دون إستيفان إلآن» الذي هو ابن حفيد الأمير «دون بريلان» الذي أتكلّم عنه، وربما كان من الملائم — أن أروى — نقلاً عن تاريخ قشتالة — كيف أن الكثيرين منهم — ابناً عن أب — قد تسلسلوا



مبارزة من حولية هولندية ترجع إلى القرن
الخامس عشر الميلادي أو مستهل السادس عشر .

obeikandi.com

من هذا النسب حتى الآن ، وإذا كنت أحمل التاريس رنكاً على شعارى
فقد جاء ذلك عن طريق الزواج ، وقد اختلطت الذرارى فاختلطت الأسلحة
بعضها ببعض .

ولما وقفت على كل هذه البيانات سألتُ الإمبراطور عما يحول بينه وبين
حمل هذه الرنوك التى جرت عادة الأباطرة فيما مضى على حملها ، وأعنى بها
أسلحة أسرتى ، فأخبرونى بأنه حدث منذ قرن أو قرن ونصف من الزمان
- وربما كان أكثر من ذلك - أن جهاز البنادقة أسطولا^(٩٠) ضخماً زعموه قادما
لمساعدة الإمبراطور ضد الترك ، حتى إذا قاموا به إلى القسطنطينة أحسن الإمبراطور
وجميع اليونان لقاءهم ، فراح البنادقة يقيمون فى شتى رحاب المدينة ، لكن
يظهر أنهم كانوا قد دبروا خطة أخذوا فى تنقيذها لأنهم انضموا إلى الأهلىن
فى ثورتهم ضد الإمبراطور وحاربوه معهم ، وتحت المزمعة على الإمبراطور
لعدم توقعه هذه الخيانة ، ونجحوا فى إخراجه من المدينة وقتل الكثيرون ،
فهرب الإمبراطور إلى «اللورة» التى كانت تسمى قديماً «أخايا» ، وهى إمارة
من إمارات ورثة الإمبراطورية ، واحتل البنادقة للمدينة وظلوا بها سبعين
عاماً كاملاً ، ونهبوا كثيراً من الآثار المقدسة التى حملوها معهم إلى البندقية
والموجودة بها حالياً ، ومنها جثمان القديسة هيلينا والقديسة مارينا وغير ذلك
كثير ، كما أفسدوا عدداً كبيراً من المباني الرائعة ، وحلوا معهم عمودين كبيرين
كبيرين أقاموا عليها تمثال حاميهما القديس على شاطئ البحر ، وهما بإسكان
كالبرجين ومحفوظان حفظاً جيداً حتى ليصعب التصديق أنهما قد نُقلا من
قبل^(٩١) ، ويوجد فوق باب كنيسة « القديس مرقس » أربعة جياد نحاسية
ضخمة قد غشيت بطبقة كثيفة من الذهب ، ويوجد أيضاً حجر الشب والرخام ،

وهذه كلها مما أخذوه من القسطنطينية أثناء احتلالهم إياها ، بل لقد كانوا على وشك نقل الحكومة من البندقية إلى القسطنطينية ، ولم يُقْعِدْهم عن تنفيذ هذه النية سوى نصيحة شيخ طاعن في السن نهاهم فيها نهياً مطلقاً عن مغادرة المدينة التي وثبوا منها على جميع المدن الأخرى .

وفي أثناء احتلال البنادقة للقسطنطينية^(٩٢) مات الإمبراطور وكذلك ولده ، ولم يبق سوى حفيده الذى تزوج إحدى بنات ملك الجرج وأصبح فارساً قديراً ، فواعد أهل القسطنطينية والإقليم المحيط بها على يوم يشورون فيه جميعاً ، وأنه سيكون متأهباً بكل ما يستطاع جمعه من قوة لإنقاذ المدينة ، فإذا أخذ المدينة آل إليه كل شيء ؛ فكان ماتم الإتفاق عليه .

فلما كان اليوم الموعد ثار الناس ضد البنادقة وحصروهم فى مكان واحد فى المدينة حتى لا يستطيعوا بلوغ سفنهم ، وأنفذوا فى طلب الأمير الذى دخل المدينة وأعمل القتل والأسر فى جميع البنادقة وترتب على العرش الإمبراطورى ، ودخل الناس عليه أفواجاً مقبلين يده ومنادين به حاكماً عليهم ، وأصابوا غنيمة كبيرة من البنادقة ، كما تسلموا فدية مالية ضخمة منهم ، أما هو فقد ساد حكمه الهدوء ، ويقال الآن إن هذا الإمبراطور الذى استرد الإمبراطورية وتولى مقاليدها لم يستطع أحداً ما أن يحمله على التخلي عن الأسلحة التى كان يحملها سابقاً ، التى كانت ولا تزال على شكل حلقتين متصلتين بعضهما ببعض ، وعجز السكل عن إرغامه على حمل الأسلحة الإمبراطورية الخاصة بالعرش ، وكانت حجته على الدوام أنه كسب الإمبراطورية وهو يحمل هذه الرنوك ، ولا يوجد شئ مطلقاً يستطيع حمله على التخلي عنها ، ومن ثم بقيت حتى اليوم على ما هى عليه ، ومع ذلك فلا يزال فى الإمكان حتى اليوم رؤية الأسلحة القديمة على

أبراج المدينة ومبانيها وكنائسها ، ولا يزال الأهالى — حين إقامتهم عمارتهم الخاصة — يضعونها عليها .

فلما سمعت ذلك أصررت على أنه يتحتم على الأباطرة حل هذه الأسلحة طالماً هي أسلحة الإمبراطور الحقيقية ، زد على ذلك أنها هي الرمز الذى يؤيد السلطة وليس الأشخاص الذين استردوها، لاسيما منذ أن استعاد الأهلون المدينة ونصبوه حاكماً عليهم ، فأجاب الإمبراطور على ذلك بأن المسألة لا تزال موضع أخذ وردّ بينه وبين شعبه، فلما وقفت على خبر ذلك كله أفضيت إلى الإمبراطور بما حدث فى إسبانيا، وأخبرنى هو بما حدث هناك .

هذا كل ما استطعت الوقوف عليه عن خبر هذه الأسلحة وما آل إليها أمرها .

ومنذ ذلك الحين أخذ الإمبراطور فى معاملتى بود عظيم كشخص تجرى فى عروقه نفس الدماء التى تجرى فى عروقه هو أيضاً ، وتمنى صادقاً لوبقيت فى بلده وتزوجت واستقر بى المقام حيث أنا ، والحق أننى فكرت فى مثل هذا العمل نظراً لما رويته من قلة سكان المدينة وحاجتها إلى الجنود الأقوياء، ذلك لأن البيزنطيين يقاتلون أمماً بالغة القوة ، وقد وجدت بالمدينة فى خدمة الإمبراطور كثيراً من القشتاليين وجماعات من الأمم اللاتينية الأخرى ، وقد أبدوا لى طيلة وجودى هناك — كثيراً من التبجيل والتقدير .

وفى ذلك النهار تقدّم أحد فرسان الأسرة ممن كانوا يوجدون هناك ودعانى لتناول الغذاء فى اليوم التالى فوعده بى بإجابة سؤاله ، فلما انقضى القداس يمت شطر بيته حيث ألفتته فى انتظارى وتناولت طعامى معه وقدمنى لزوجته وأبنائه ، وعاملونى معاملة تنطوى على الصداقة الخالصة ، فلما انقضى الغذاء صرف كلّ من كان حاضراً وذهب إلى حجرته ولبس قميص « إسكاما » وهو شعار مولانا الملك ، ثم دخل على وحادثنى بالقشتالية ،

قائلاً: «أيها السيد الفارس، مرحباً بك، هاهو ذا بيتي بكل مافيهِ رهن إشارتك كما لو كنت أخي، فلقد حباني مملكتك بالشرف السامي والمنافع الجمة، كما لقيت كرم الوفادة من فرسان بلدك، وإذا كنت قد أمسكتُ حتى اللحظة عن محادثتك بلسانك بين الناس فردّه إلى أننا نرى العيب في التخلي عن لغتنا واصطناع لغة غريبة عنا، ومع ذلك فنظراً للحب العظيم الذي أكنّه لشعبك ولك فقد آليت على نفسي -- حين نكون على انفراد -- أن أجعل نفسي مثلك قشتالياً في كل شيء». ومنذ تلك الساعة عاملني هذا الفارس بمنتهى الاحترام، واستقدم إحدى إخوانه إلى -- وكانت امرأة بارعة الجال -- قائلاً إنه يتحّم عليّ -- طول إقامتي هناك -- أن أعاملها كصديق أحترمه ثم زكّاني لديها، والواقع أنني أعتقد أنه كان يرغب في أن أتزوجها، ولقد منحني هذه السيدة أشياء كثيرة، منها حيوانان أخذتهما معي إلى قشتالة، أعطيت أحدهما إلى الملك واستبقيت الآخر عندي.

* * *

وفي هذا اليوم بعث الإمبراطور إلى داعياً لِيأتى للخروج للصيد، وعدنا بكثير من الأرناب والحجلات والدراج وغيرها من الطيور التي تكثر هناك كثرة هائلة، فلما رجعنا إلى القصر استأذنت في الانصراف وذهبت إلى محل إقامتي حيث أمرَ الإمبراطور بتزويدي بكل ما أُنافي حاجة إليه، ولا شك في أن رغبته قد انصرفت إلى إحاطتي بالشرف وإغداق المنح عليّ، وراح هو وشريكه الإمبراطورة منذ ذلك اليوم -- إذا أراد أنني مصاحبتهما وحاشيتهما في الخروج للصيد -- بعثا إلى الجياد ذكرين ماهم واجدوه من متمة كبرى في مصاحبتى إليهم.

وبعد انقضاء خمسة عشر يوماً على زيارتي للقسطنطينية، رحل الإمبراطور في

الأغربة البندقية لمقابلة البابا ، وألح على كثير أن أرافقه ، ولكن بودى
لو فعلت ذلك لولا أنني كنت مضطراً لأن أرى أولاً بلاد اليونان وتركيها وكذلك
بلاد التتار ، فلما رأى عجزه عن إقناعي بما يريد أوصى بي زوجته الإمبراطورة
وأخاه «دراجس»^(٩٣) - وكان ورثته في العرش الإمبراطوري ، وقد قتله الأتراك
بعدئذ - وسافر الإمبراطور في أبهة عظيمة ، ورافقه في سفرته هذه إثنان من
إخوته وثمانى مائة رجل من الأشراف ذوي المكانة الرفيعة ، وأقيم احتفال
عظيم يوم رحيله^(٩٤) وانتظم كل واحد في موكب من مواكب الجمعيات
الدينية ، وتلاقى الجميع عند مكان ركوبه السفينة ، كما أن فئة كبيرة ركبت
البحر مسيرة سفر يوم إلى جوار الأسطول وكذلك فعلت أنا فعلهم ، ثم
استأذنت وعدت إلى القسطنطينية ، غير أن الإمبراطور أجازني كارهاً وقال
إنه لو كان معي رجالى لما أذن لى في الرجوع ، ومن ثم تركته ، وسألنى أن
أزوره قبل عودتى إلى وطنى ، فوعده وأنجزت ذلك الوعد فيما بعد .

الفصل الخامس عشر

أدریانوبولس . وصف السلطان العثماني .

البحر الأسود . الوصول إلى

طرابزون

...

حين عدت إلى القسطنطينية استأذنت من الطاغية دراجس -- ممثل
الإمبراطور إذ ذاك -- في الذهاب إلى أدریانوبولس التي هي أعظم مدن
اليونان قاطبة باستثناء القسطنطينية حيث كان الترك قد حشدوا بها جيوشهم ،
فبث الطاغية في طلب فئة معينة من التجار الجنوبيين الذين كانوا بها وأمرهم بأن
يدبروا إلى إمكان رؤية السلطان التركي ودولته وشخصه وأن يضمّنوا سلامة عودتي ،
وحدث أن كان قد وصل أخو أحد هؤلاء التجار وكان أثيراً جداً لدى
الطاغية كما كان في الصميم من ثقته ، فقبل هذا التاجر -- إستجابةً لخاطره --
أن يحملني معه ويطلعني على كل شيء ، فرحلنا في مدى ثلاثة أيام سالكين
الطريق المؤدي إلى بلاد اليونان ، مارين ببعض أماكن معينة صغيرة لا حاجة
لوصفها هنا ، حتى بلغنا « أدریانوبولس » بعد رحلة استغرقت تسعة أيام ، فأقمت
مع الجنوي في بيته الذي كان بالمدينة ، وبث السلطان التركي في طلب مسفسراً
منى عن وقت رحيل الإمبراطور وكيفية سفره وهيئته وفي سفن من ، وبينما
أنا أفضى إليه بخبر هذه الأشياء تسنى لي رؤيته ورؤية حاشيته وشعبه ، وكان
يبدو عليه أنه يناهز الخامسة والأربعين من عمره ، كما كان حسن البنية مليح

التقاطيع ، تدل هيئته على الفطنة ، ذا نظرات صارمة ، ونحوه حاشية رائحة لم
يأت لي قط أن أرى شبيها لها ، إذ كان معه جميع قواته التي تبلغ ستمائة ألف
راكب ظهراً ، وإماني لمشير إلى أولئك الذين أمدوني بهذه المعلومات حتى
لا أبدو مغاليكي ما أروى ، والحق أني أخشى أن أعيد كل ما أنبأوني به ، فلا
يوجد قط أي ماش في أرجاء بلده ، بل يمتطي الجميع صهوات جياد ضامرة
بالغة الصغر .

ويقيم السلطان العثماني وقومه على الدوام في معسكرات بالميدان : سواء
أكان الزمن صيفاً أم شتاءً ، وعلى الرغم من شدة قرب المدينة منه إلا أنه
لا يدخلها إلا إذا كان في صحة حريمه للاستحمام : الأمر الذي تهيأت لي رؤيته
بفضل معونة الجنوي ، فقد ذهب السلطان للحمام ترافقه الطبول والموسيقى
وبين يديه الممشدون ينفنون ، وفي صحبته حشد كثيف من النساء اللاتي يقال
لهن جواريه وعددهن ثلاثمائة أو يزيد ، وكان لدخولهم المدينة ضوضاء
شديدة وجلبة صاخبة ، وظلوا مقيمين بها حتى منتصف الليل حين آب السلطان
التركي إلى معسكره .

فلما كان اليوم التالي خرج السلطان للصيد ، فرتب لي الجنوي أمر الذهاب
كذلك ، فكان هناك أناس كثيرون على ظهور الجياد يبتاعهم وصقورهم وكلاب
الصيد الملمة وكافة أدواته ، ومن عادة الترك أن يحملوا في السرج خطافاً
حديدياً ، ومعهم طبول الصيد وفي جعباتهم القسي ، ولما كان القطر بارداً
وغالباً ما يعمه الجليد مما يسهل معه سقوط الجياد فإن الرجال يلبسون على الدوام
أحذية قوية جداً من الجلد الدمشقي تصل إلى ركبهم ، وتثبت بها المهاميز ،

فإذا كبا الحصان استطاعوا تخلص أرجلهم دون أن تخرج وتبقى الأحذية في الركاب .

* * *

ويوجد هنا كثير من الطيور والبزاة وشتى أنواع الطير الموجود مثلاً في إسبانيا .

ويتدثر الرجال على أسلوب أهل الريف فيلبسون عباات وجبياً طويلة من صنف واحد مشقوقة الإزار من الأمام ، وقد نسجت من الصوف الجليل والحرير الموشى المستوردين من إيطاليا ، بيد أن الشيء الذى أدهشنى أكثر من سواه هو كثرة أنواع الفراء : من القاقم والسمور وغيرها من جلود أقل منها قيمة كجلد الثعلب الذى يبالغون فى ثمنه مبالغة قصوى لنوعه ورقة ملمسه وشدة دفئه وملاءمته لمثل هذا الجو البارد ، ويفطى الكثير منهم رؤوسهم بقبعات من التيل ، على حين يضع البعض الآخر قبعات تشبه تلك التى ترتدى فى حفلات اللهو الريفية فى «بيرجوس» ، ويستعملون سروجاً كسروج الحمير ولكنها كثيرة الزينة ومغطاة بالأنقشة الجميلة ، وركاباتهم أميل إلى القصر منها إلى الطول .

* * *

عدنا فى ذلك اليوم إلى المدينة فأخذنى رفيقى لمشاهدة المعسكر والأحياء التى يقيم فيها الفرسان وغيرهم من الكبار ، وهم يحتفظون هنا - شأنهم فى هذا شأنهم فى بيوتهم - بكل ما تتطلبه راحتهم من استبقاء نساءهم معهم وغير ذلك .

والمعسكرات رائعة مجهزة بكل ما تستلزمه المتعة الشخصية ، لكن الأهالى مع ذلك يقاسون كثيراً من شظف العيش الذى لم يعودوا يتكروونه لطول ألفتهم إياه ، وتبقى الجياد دائماً فى العراء دون حظائر ، وأعتقد أنها رغم نحاتها

وصفرها الطبيعي إلا أن الطريقة التي تترك عليها تجعلها أقل جهداً ، والواقع أنها تبدو في بعض الأحيان وكأنها قل أن تستطيع لراكبيها احتمالاً ، وعلى الرغم من صعوبة تصديق عدد جيادهم فأننى أحسب أن ما في بلدنا قشتالة من الدواب وما في غاليسيا وفي الجبال من خيول الجر والبغال والأفراس والحديد أكثر مما عندهم ، وإننى لأؤثر امتطاء حمير من حميرنا على امتطاء جواد من جيادهم في الحرب أو المباراة .

وللترك أملاك شاسعة ، ولكن الإقليم جبلى شديد الجذب قليل السكان ، على حين أن بلاد اليونان — التي يحتلونها — أرض منبسطة مثمرة رغم أن سكانها قد تضائل عددهم الآن بسبب الحروب ولتجملهم عبء القتال بأكله ، وللقسوة التي يلاقونها على يد الترك الفلاظ القلوب ، والواقع أنه من الصعب أن نتصور كيف يمكن تموين جيش ضخم كهذا الجيش .

والترك — والحق يقال — شعب نبيل ، فهم يعيشون في قطرم عيش السادة المترفين سواء أكان ذلك في نفقاتهم أو في أعمالهم أو طعامهم أو ألعابهم التي يقلب عليها الميسر ، وهم أهل صرح وطيبة ، وحديثهم عذب مستساغ ، وإذا ما تكلم أحد عن الفضيلة في هذه النواحي إكثفى بتشبيهه بالتركي .

ولما فرغت من رؤية السلطان التركي وأهل بيته وبطانته وبلده أخبرت رفيقى أنه يحسن بى أن أعود إلى القسطنطينية ، لكننا اضطررنا للإقامة يومين آخرين لعملي كان لابد لنا من إنجازه مع جماعة من تجار حاشية السلطان الذى خرج في أحد هذين اليومين للقنص ، فصحبته لأرى الاجتماع الذى كان أعظم

ما تسنى لى مشاهدته من ناحية العدد والجياد والعرض العام، فقد ارتدى الرجال أثمن ما لديهم من الملابس وأغلاها حسب مكائهم ، لكننى لم أرقط فى حياتى مثل هذه البطانة فى كثرتها وثرائها .

فلما كان اليوم التالى رحلنا قاصدين القسطنطينية سالكين نفس الطريق الذى جئنا منه ، وأظهر الطاغية دراجاس سروراً كبيراً لرؤيته إياى ، وشكر الجنوى شكراً قلبياً للعناية التى أحاطنى بها ، فبقيت مستجماً بالمدينة ثمانية أيام التمسيت فى أننائها من الطاغية أن يتفضل بمخاطبة قائد سفينة هناك مخبراً إياه برغبى فى عبور البحر الأسود للذهاب إلى مدينة « كيفا » التابعة للجنوية والقريبة من بحر أزوف ، فأرسل الطاغية فى الحال إلى الربان وسأله أن يحمنى معه وأن يكرمنى ، فوعد بذلك . كما تكلم صديقى الكابتن « جوان كارو » القشتالى مع أحد الجنوية وأوسق سفينته بعض تجارة له إلى « كيوس » و « رودس » كى يكون المتفضل عليه ، كذلك أعطانى هذا القشتالى مؤونة للرحلة ، فجهزنا أنفسنا بعدئذ وأبحرنا وجئنا إلى البسفور الذى يمتد مسافة ثمانية عشر ميلاً من القسطنطينية حتى مدخل البحر الأسود ، فلما دخلناه سرنا يميناً شطر تركيا، ومررنا بأما كن كثيرة حتى بلغنا قلعة يسمونها « صنوب » فى تركيا ولكنها تابعة للجنوية فألقينا بها مراسينا ، وأقنا يومين أفرغنا خلالها ما معنا من تجارة واستبضعنا بدلها أخرى ، ووجدنا الترك فى هذه الجهات يقطعون الخشب الذى يصنعون منه أقواساً قوية جداً ، ويدفنونها على شاطئ البحر خوفاً من العقاب الشديد الذى يوقع بهم إذا ضُبطوا وهم يبيعونها للمسيحيين ، فإذا أبصروا السفن مارة بهم نبشوا عنها فأخرجوها وباعوها .

* * *

رحلنا من « صنوب » وظلنا مبحرين مصاقبين لشاطئ البحر الأسود .

حتى بلغنا طرابيزون التي كانت تسمى في القديم « ساموتراس » ، وإمبراطورها يوناني نصراني ، ويقال إن أبا الإمبراطور الحالي رغب في أن يحرم أخاه الأكبر من الإرث ، فاتصل بالسلطان التركي سائلا إياه معاوئته فقتل أباه ، وكان له ولدان فقتل الأصغر منهما أباه ، وهكذا حقت كلمات الانجيل القائلة « بنفس الكيل يكال لكم » ، فكان الأخ الأكبر هو الذي رأبته في القسطنطينية يعيش في المنفى مع أخته الإمبراطورة اليونانية ، ويقال إن علاقاته بها آئمة .

الفصل السادس عشر

طرايزون . المنتصب . كافا . سوق الرقيق .
شراء المؤلف لثلاثة من المييد . تجارة
الكافيار . الحان العظيم . التار .
. . .

تشتمل طرايزون على قرابة أربعة آلاف نسمة ، وهي حسنة التسوير ،
ويقال إن الأرض بها مثمرة وأنها تغل دخلا كبيرا ، ولما بلغناها نزلنا إلى
اليابسة وذهبنا لرؤية الإمبراطور^(٩٥) الذي استفسر منى عن إمبراطور
القسطنطينية وكيف رحل إلى إيطاليا وعن استصحبهم معه ، كما سألتى عن
أخته الإمبراطورة وأخيه الذى كان قد نفاه ، وقد فعل ذلك كله لأنه أراد
أن يعرف منى عما إذا كان صدقا ما قيل من أن أخاه خطب ابنة صاحب
ملطية ، وأن هذا السيد وجماعة الجنوية والإمبراطور قد أمدّوه بأسطول ضخيم
لمحاربة طرايزون ، فأكدت له صدق ما سمع . وإذ ذاك اكتبنا خاطره
أشد الاكتئاب ، وأجاب بأن لديه من القوة ما يكفي لمقاومتهم كلهم بل
وأكثر منهم ، وراح يطرني بالأسئلة الجمة عساه أن يعرف من أنا وأين
أذهب ، وحثنى على الإقامة هناك واعدنا إياى — فى سبيل مرضاتى —
بإرسالى على ظهر إحدى سفنه لمشاهدة ما أتعلم لمشاهدته ، فأجبتة شاكرًا بإياه
رغبته فى بقاءى معه وإن أفهمته أنى لا أستطيع إجابة سؤاله مادام لا بد لى من إنجاز
رحلتى والعودة إلى وطنى فى أمد ليس لى أن أتجاوزه ، لأن مولاي الملك كان

ماضيا إلى محاربة المسلمين ، وزيادة على ذلك فلو أن الظروف كانت غير هذه فإننى لا أستطيع الإقامة عنده لأنه متزوج من ابنة رجل تركى ولا بد من أن يحدث له سوء ما من جراء هذا الزواج ، فأجاب بأن الرب غافر له هذا العمل لأنه اقترن بها بنية تحويلها إلى النصرانية، لكننى قلت له : « بل إنهم يقولون يامولاي إنهم زوجوها لك كي تحوّل أنت إلى الإسلام بسبب ما تطمع أنت فيه منها ولقلة ما بيدك » فأمر بأن يجهزوني بما أحتاجه من الطعام، وسألنى العودة مرة أخرى .

حينذاك سافرت مبحرا إلى « كافا »^(٩٦) وهى جزء من إمبراطورية التتار ، وإن كانت المدينة ذاتها فى يد الجنوية الذين أذن لهم بالسكن فيها ، ولم يكن يدور بخلد التتار أن الجنوية سيستقرون هناك بمثل هذه الأعداد الضخمة، فألقينا مراسينا فى الميناء وجئنا إلى الخان الذى يتخذة قائد السفينة سكنا له وبقينا به ، حتى إذا كان اليوم التالى ذهبت لرؤية دير القديس فرنسيس البالغ الحسن وحضرت القداس ، ثم مضيت بعدئذ لمشاهدة الحاكم الذى تلقانى لقاء طيبا ليس بعده غايةً مستزيد ، وسألنى عما أحتاجه وأريده ، وأنبأنى بسروره فى أن يمدنى بكل لوازمى لشعوره بالحب الكبير لأمتى وحقها عليه، فقد عاملته أحسن معاملة حينما كان فى أشبيلية ، فشكرته من قلبى ، ثم أخذت أتجول فى المدينة قبل أن يسدل الليل ستاره ، وقد ملأ العجب نفسى لرؤية كثير من الأشياء الغريبة على .

والمدينة كبيرة جدا تضاهى أشبيلية فى حجمها أو لعلها أضخم منها ، كما أن سكانها ضعف سكان أشبيلية ، وهم خليط من المسيحيين والكاثوليك واليونان وجميع شعوب الدنيا ، ويقال إن إمبراطور التتار كان قد استولى عليها

وخرّبها مرات عدة لولا أن الأثرياء وأهالى الأقطار المحيطة بها لم يقبلوا ذلك لا تخاذم إياها مكاناً يمارسون فيه أعمالهم الشريرة وسرقاتهم وجرائمهم كبيع الأب أطفاله والأخ أخاه ، وتقوم جميع شعوب فارس بهذه الأمور وما هو أسوأ منها، فحينما يغادرون المدينة ييمون وجوههم شطرها ويسحبون قوساً ويرمون حائطها بسهم منه قائلين إنهم يتخلصون من الخطايا التي اقترفوها ، ويزعمون أكثر من ذلك أن بيع الأطفال ليس خطيئة لأنهم عطية أعطاهم الله إياها للمنفعة ، وأن الله سيرعى الأطفال حينما ذهبوا أكثر مما يرعاهم لو كانوا مع آبائهم ولعل ما يباع هنا من الرقيق - ذكوراً وإناثاً - أكثر مما يباع فى أى مكان آخر من العالم ، ويوجد بهذه المدينة وكلاء سلطان مصر الذين يشترون العبيد ويرسلونهم إلى القاهرة حيث يسمون بالمماليك .

ويبد المسيحيين مرسوم بابوى يتحول لهم شراء العبيد النصارى من الأمم الأخرى والاحتفاظ بهم منعاً لهم من الوقوع فى أيدي المسلمين حتى لا يحولهم عن دينهم ، وهؤلاء الرقيق من الروس والقوقاز والجزا كسة والبلغار والأرمن وسواهم من شعوب العالم المسيحى ، ولقد اشتريت بكافا جاريتين وعبدا لزلت أحتفظ بهم جميعاً عندي فى قرطبة مع أولادهم . أما البيع فيتم على الصورة التالية ، هى أن يجرد العبيد - ذكورا كانوا أم إناثا - من كل ما عليهم من الثياب ، ثم يطرحون عليهم عباءة من اللباد ويعلنون عن الثمن ، وبعدئذ يحملون الفطاء عنهم ويدعونهم يسرون جيئة وذهابا ليرى الناس إن يكن ثم عيب جُماعى ، ويقطع البائع على نفسه عهداً برّد ثمن العبد لشاريه إن مات العبد بالطاعون فى مدى ستين يوماً ، وإذا تنوعت جنسيات الرقيق وكان من بينها تنارى أو تنارية زيد الثمن بقدر الثلث ، اذ من الثابت المقرر أن لم يحدث أن خان تنارى - مولاة .

ومدينة كافا غير حسنة التسوير وجولها خندق صغير جداً ، ولكنها
مجهزة تجهيزاً كاملاً بالسهام والمدافع الكبيرة والصغيرة والبنادق والمدافع
القديمة الطراز وشتى ضروب آلات الدفاع التي قد يوجهونها أحياناً ضدَّ
العزل من السلاح رغم عدم رغبتهم في إصابتهم بأى أذى لما يجنونونه منهم
من أرباح طائلة ، وقد حدث قبل أيام قلائل أن زحف أهل المدينة بقواتهم
وآلاتهم الحربية للاستيلاء على مدينة « كوركأن » كبرى مدن إقليم التتار،
غير أن التتار علموا بنخبهم وتغلبوا على الجنوية واستولوا على مدفعيتهم
وأعلامهم، ثم أعلوا القتل والأسرى الكثيرين منهم حتى لقد فكر التتار يوماً
في الاستيلاء على كافا ذاتها، فزحفوا حتى صاروا على مقربة من أسوارها
وحاولوا تسلفها ، لكن الكثيرين منهم لاقوا مصرعهم ، وإذا ذاك أيقن
الجنوية أن رجالهم أقدر في البحر منهم في البر .

وتحدّ الأرض كافا من الناحية المواجهة لفارس والهند، أما بقية النواحي
فيحدها بحر « تانا » وبحر أزوف وبحر باكوه ^(١٧) (أى بحر قزوين) ،
ويجلب إليها القوم كثيراً من أصناف التجارة كالتوابل والذهب والآلى
والأحجار الكريمة، يضاف إلى هذا كله ما يجلبونه من الأقطار المحيطة بها ومن
كافة أرجاء الدنيا من الفراء الذى يباع بأرخص الأسعار، ولا شك في أنه لو لم
يكن الجنوية هناك لما كان لأهل تلك الناحية اتصال ما بنا نظراً لكثرة
وجود شعوب مختلفة بها ، مما تنوع معه أنماط الثياب وضروب الطعام
كما تنوعت أصناف النساء ، ولقد جاءوا لنا في الختان الذى نزلناه بعدارى
صغيرات لقاء كأس من الخمر الذى يندر وجوده بها ندرة بالغة، وشأن الخمر
في ذلك شأن جميع أنواع الفاكمة والخبز ، إذ لا يقيسر الحصول على كل

هذه الأشياء إلا في المدينة . ولكن يمارس بيعها هنا جماعة التجار ويشتمطون في ثمنها ، ولهذا السبب كانت السرقات شائعة .

والتتار قوم محاربون كثيرو العمل هم وجيادهم ولا يحتاجون إلا للقليل مما يقيم أودهم ، وهم يقولون إنهم في انتقالاتهم وحروبهم يحملون نصيبهم من اللحم فيما بين جانب الحصان ومقعد السرج^(٩٨) ، وهم لا يظهرون بل يكتفون بهذه العملية ، كما أنهم يشنون الحرب على جيرانهم المسيحيين وبأسروهم ويبيعونهم في كافا لا سيما منذ موت « فيتولدو » الذي كان يسط حكمه على ليتوانيا وروسيا ، وهو أخو ملك بولندا وقد مات دون وريث له ، فلما تولى ملك بولنده حكم النواحي التي مات عنها أخوه - وهي جد قاصية عن بولنده - كره الناس حكومته وتجزأت البلاد مما أدى إلى ضياعها ، وإذا كان بعض التتار رقيقاً لنا فرجع ذلك إلى ما يقع عليهم من السرقة كما أن آباء البعض منهم يبيعونهم حسبما أشرت إلى ذلك آنفاً ، ومن ثم فإن « كافا » زاخرة بأناس من شتى الشعوب ومختلف الأجناس ، ومن العجب أنها خالية مع هذه الكثرة من الطاعون .

وقد ذهبت - أثناء وجودي بها - لمشاهدة نهر الدون^(٩٩) العظيم الذي يزعم الناس أنه النهر الثاني الذي ينبع من الجنة الأرضية ، ويستمد نهر أرواف وقزوين مياههما من مياه « تانيه » الذي يجري عبر فارس وشبه القارة الهندية ، ويشبه نهر النيل في أنه تنقل به كثير من أنواع التجارة الواصلة إلى البحر الأسود قرب كافا ، ويوجد على هذا الشاطئ حصنان أحدهما تابع للجنوية وثانيهما للبنادقة حيث يخزنون بهما كثيراً من البضائع .

ويكثر في هذا النهر السمك الذى يحملونه فى السفن ، كما توجد به
 كيات ضخمة من السمك الذى نسميه نحن هنا « بالسولو » وهو من أطيب
 الأنواع: طازجاً كان أو مملحاً ، ويمكن العثور عليه فى قشتالة بل وفى هولندة
 أيضاً حيث يحمل إليها ، ولقد سلك هذا الطريق سفراء الملك هنرى حينما
 ذهبوا إلى بلاط تيمورلنك^(١٠٠) ، كما أنبأنى الدون « ألفونسو فرناند
 دى ميا » أن المسافة التى قطعوها من هناك إلى أقصى ناحية بانفوها تقرب من
 المسافة من كافا إلى قشتالة ، ولكنهم ذهبوا إلى هناك مباشرة وعادوا
 ورأوا فى طريقهم وفى بلاط تيمورلنك - كما يؤكدون - كثيراً من
 الأشياء الغريبة .

ونهر الدون نفسه ذو منظر غريب وكذلك الحال إزاء من يعيشون
 على ضفتيه إذ يصطادون نوعاً معيناً من السمك يسمونه « ميرونا » يقال
 إنه شديد الضخامة ، وهم يضمون بيضه فى براميل خشبية ويحملونه إلى شتى
 أرجاء العالم لا سيما إلى اليونان وتركيا ويسمون ذلك بالسكاثيار ، وتبدو
 البيضة أول ما تبدو أشبه بفقااعات الصابون الأسود ، وهم يأخذون هذا
 البيض وهو لا يزال رطباً ويضعطونه بالمدى كما نصنع نحن الصابون فى بلدنا ،
 ثم يضمون ذلك فى مواقد تكسبه الصلابة ويبدو كبيض السمك ، وهذا
 السكاثيار شديد اللوحة .

ويلبس النساء وأغلب الرجال الحرير الناتج فى تلك النواحي ويتفننون
 فى تطريزه تفنناً يشبه تفنن الأندلسيين هنا ، ويرتدى الرجال عباءات اللباد

الرقيق الذى يضغط بعضه إلى بعض وليس به أثر للالتحام ، أما أسلحتهم فهى
السيوف القصيرة والقسى والسهم والهراوات .

* * *

ولقد بذلت كل الوسائل التى فى مكنتى للذهاب إلى بلاد التتار ، لكن
أجمع القوم كلهم على نصحى بالإقلاع عن ذلك ، إذ ليست المخاطرة مأمونة
العواقب إن أنا مضيت إلى مثل هؤلاء القوم الذين لا يقر لهم قرار ، وليس
لهم راع من حاكم يدينون له بالطاعة ، ومع ذلك فقد ذهبت لمشاهدة مدينة
« كوركان » ، وأردت أن أطالع من هناك سوق الإبلخان المسمى « لوردوباسار »
Lordo Basar أى ميدان الوالى ، والذى يسمونه ببلاطه ، وشاهدته بنفسى .
وصِفَتِه أنه يوجد مكان أشبه بالمدينة الكبيرة بعمقون فيه سوقهم - كما يسمونه -
ويجلس به قاضيهما الأكبر الذى يوكل إليه الفصل بين الناس فيما هم فيه
يختصمون ، وعلى الجانب الآخر - وهو الأيسر - يوجد مكان آخر لنفس
الغرض يقف به قاض آخر مثله لحكم الجماعة .

أما بيوتهم فهى مما تحمل معهم ، إذ أن بعضها مصنوع من التيل والبعض
الآخر من العصى ، وقد يحدث فى بعض الأحيان - حين لا تغل الأراضى
شيئاً - أن ينتقلوا إلى سواها ، فإذا ما قاموا بذلك عمدوا إلى جميع حاجاتهم
فوضعوها فى العربات ورتبوها على نمط يبدو أنهم لا يستطيعون عنه فكاكاه ،
وهم لا يأكلون الخبز حيث لا يوجد عندهم منه شيء ، بل يقتصرون فى
طعامهم على خليط من الأرز ولبن الجمل ولحم الخيل ، ولا يقربون أى نوع
من الخمر لاتباعهم الإسلام ، ويمتد سلطان الإبلخان الأعظم على قطر فسيح
الأرجاء ، وإن تكن المدن والبلدان غير معروفة لديهم ، ويعيش التتار
دائماً فى العراء .

وإذا لم يجدوا قوماً من الفصاري يقاتلونهم حارب بعضهم بعضاً ،
ولا يتورعون عن السرقة كلما وجدوا إليها سبيلاً دون خوف من إقامة الحد
عليهم ولأنهم لا يعدون السرقة جرماً ، وهم ذوو بنية صغيرة في العادة وإن
كانوا مبسوطي الأكتاف ، أما جباههم فعريضة وأما عيونهم فصغيرة ،
ويقال إن أشدم تشويهاً في الخلقة هم أنبلهم مولداً ، كما يقال أيضاً إنهم إذا
اصطدموا بالترك كانت لهم الغلبة عليهم ومن ثم فالترك يهزمون الإغريق ،
ويهزم الإغريق التتار .

ولكن البيزنطيين الآن بأجمعهم لم يعودوا شيئاً يذكر ، لأن القسطنطينية
كانت في ذلك الوقت السكان الوحيد المحصن الذي تركوه والبعض لا زالوا
يسمونهم بالسادة ، رغم أن كافة الأمم النصرانية المنتشرة في أرجاء الدنيا
أصبحت في رق المسلمين وقد أخذ الترك بثأر تروادة ، وكان اليونان
خاضعين لهم حتى قبل وصولي وحتى قبل الاستيلاء على القسطنطينية ، وإذا
كان الترك لم يستولوا عليها حتى الآن فما ذلك إلا خوفهم من أن تهب
شعوب الغرب النصرانية فتتمشق الحسام ضدهم ، لكن يبدو جلياً من إهمال
الأمراء والشعوب المسيحية العظيم أن القسطنطينية موشكة على الزوال مما يدل
على عبث هذا الخوف ، ولو كان الترك أكثر جرأة مما هم عليه الآن ، ولو
أراد الرب — لنجحوا في كل محاولاتهم بعد أن رأوا تقاعد النصرانية عن
بذل أية محاولة للثأر وإصلاح الخطأ ، ومن الواضح فعلاً أن المدن تكون
أحسن دفاعاً عن نفسها بقوة الرب المعجزة أكثر من الصناعة والقوة المادية .

وكنت شديد الرغبة في البقاء بهذا الأقليم ولكن صرفني عن تحقيقها
ما طبع عليه أهله من همجية وعدم استماعي ما كلمهم ، ومعظم بلادهم صعبة

الارتياذ كما هو الشأن في بلاد الهند حيث يستحيل السير ، وليس هناك إلا القليل مما يمكن رؤيته في بقية ربوع الإقليم باستثناء أولئك النصارى الذين قلت عنهم إنهم أشد ما يكونون تعاسة وقد حطمتهم قوة جيرانهم التتار الكريهين ، كما ينقصهم الحاكم الذى يدبر شئونهم ويرعى أمورهم ، مما سوف يجعلهم يستمرون على معاناة هذه الشدة حتى يرق الله عليهم .

ومدينة كافا شديدة البرودة شتاء شدة تتجمد السفن منها في الميناء ، وقد بلغ أهلها من الحمجية والعيب حداً أحسست معه بالسرور حين انصرفت عن الرغبة في رؤية شيء أكثر من هذا والعودة إلى بلاد اليونان ، لذلك جمعت حاجاتي ورحلت عن كافا

الفصل السابع عشر

المودة لقسطنطينية . أيا صوفيا . الخلفات المقدسة

تمثال جستنيان . المبدروم . تمثال العدالة .

القصر . المكتبة . سوء حال

المدينة

...

أبحرنا في نفس السفينة وتابعنا مسيرنا حتى عدنا إلى طرايزون التي قلت سابقاً إن إمبراطورها بذل قصارى جهده لاستبقائي لكنه لم ينجح في مسعاه، ومن ثم سافرنا وأدركنا القسطنطينية التي كانت الأوامر قد صدرت بها بعدم السماح للسفن القادمة من البحر الأبيض بالدخول في مينائها سواء أكانت قاصدة القسطنطينية أم بيرييه مخافة أن تنقل معها الطاعون، ومن ثم بنوا ملجأ على بعد مرحلتين من القسطنطينية تفرغ فيه السفن حولاتها وتظل باقية به مدى ستين يوماً إلا إذا كانت معدة للنزول للبحر ثانية، ولا شك أن الجماعات الأجنبية تجلب معها كثيراً من الأمراض، وقد رأيت بعين رأسي في الخان الذي كنت أنزله رجالاً هلكوا بالطاعون، لذلك أرسلت واحداً من رجالاتي إلى الطاغية دراجس أستأذنه في دخول المدينة مُعلماً إياه أنني غادرت السفينة أنا وجماعتي، وأنتى لم أقم مع الآخرين بل بقيت يومين في اللعراء، وإذا ذلك أنفذ أمره بإرسال قارب إلى أحسن القوم تجهيزه وإعداده، وجاء عليه نفر من أصدقائي الذين خفوا لاستقبالى، فبعثت رجالى إلى المكان المخصص

لإقامتهم ، وأما أنا فقد مضيت لتقديم احترامى للطاغية الذى لقينى لقاء كريماً وكذلك الإمبراطورة وحاشيتها ، واستفسرت منى الإمبراطورة عن شأن رحلتى فى البحر الأسود ، وسألت على وجه الخصوص عما إذا كنت قد رأيت أخاها إمبراطور طرايزون — وكان معها إذ ذاك أخوها الآخر — ، فأنبأها بما حدث أثناء رؤيتى الإمبراطور ، فشكرنى الاثنان شكراً عميقاً وقالت لى الإمبراطورة : « ما كنت بفاعل أكثر من هذا لو كنت أحد أبناء بلدتنا » ، فأجبتها : « سيدتى ، لقد أدبت ما ينبغى على المسيحى الكريم أدائه » . ثم استأذنت وانصرفت منسكفاً إلى خانى يحوطنى أشراف المدينة .

* * *

فلما كان اليوم التالى ذهبت إلى الطاغية وسألتها إن كان يأذن بإصدار أمره بالسماح لى برؤية كنيسة القديسة صوفيا ومخلفاتها الدينية المقدسة ، فأجابنى أنه سيفعل ذلك راضياً مغتبطاً ، كما أنبأنى أنه راغب هو ذاته فى الذهاب إليها لسماع القداس ، وفعلت فعله الإمبراطورة وأخوها إمبراطور طرايزون الشرعى ، ومن ثم ذهبنا إلى الكنيسة لحضور القداس ، فلما فرغنا منه صدرت الأوامر بالسماح لنا بمشاهدة البيعة البالغة الضخامة ، ويقول الناس فيما يقولون إنها كانت تحتوى أيام ازدهار القسطنطينية على ستة آلاف رجل من رجال الدين ، أما فناؤها الداخلى فقير معتنى به العناية الكافية ، وإن تكن الكنيسة ذاتها فى حال جيدة حتى ليخيل لرائبها أن يد الصناعات قد فرغت منها الآن فقط ، وهى مبنية على الطراز الإغريقى وملحق بها كثير من الكنائس الصغرى ، وسقفها مصنوع من الرصاص ، أما داخلها فحلى بكثير

من الفسيفساء الذى يرتفع من الأرض مسافة رمح طولاً ، وقد بلغت هذه الفسيفساء من الدقة حداً لا تستطيع فرشاة الرسام أن تأتى بأحسن منه منظراً ، وأما أسفلها فأحجار جميلة بلغت الغاية من دقة الصنعة ، وقد خلطت بأنواع الرخام والسماق وحجر اليصب ، وأما أرضها فن الأحجار الضخمة التى أبدع القوم فى تنسيقها وتجميعها ، وتقوم فى وسط هذه الكنائس الصغرى المصلى الرئيسية العظيمة الاتساع ، وتبلغ من الارتفاع قدراً يصعب معه الاعتقاد باستطاعة البناء التماسك ، وفى هذه المصلى الكبرى صورة من الفسيفساء تمثل الآب فى الوسط ، وتبدو هذه الصورة من أسفل فى حجم الإنسان العاوى ، لكن القوم يقولون إن طول القدم وحده يبلغ طول الرمح ، كما تقدر المسافة بين العينين بعدة أشبار كثيرة .

ويوجد بها المذبح الأعظم حيث يستطيع الإنسان أن يتبين كل فنون الهندسة وإبداعها ، كما يقوم أسفل هذه الكنيسة^(١٠١) صهريج كبير يقال إنه يسع سفينة ذات ثلاثة آلاف مجدف تسير به ، ويسع ما تحتاجه من ارتفاع الماء وعمقه ، ولست أدري عما إذا كان مثل هذا القول فى حاجة إلى ما يدعمه وإن كنت لم أرقط فى حياتى صهريجاً أكبر منه ، ولا أعتقد بوجود مثل هذا الصهريج فى مكان آخر .

* * *

واقعد أصدر الطاغية أمره هو ومن معه إلى رجال الدين بإحضار الخلفات الدينية المقدسة ، ولها ثلاثة مفاتيح يحتفظ الطاغية بأحدها ، وأما الثانى فمع بطرك القسطنطينية الذى كان موجوداً حينذاك ، وأما الثالث فمع سادن الكنيسة ، واقعد جاء القس بملابسهم الدينية فأخرجوا الخلفات المقدسة

وساروا بها في موكب عظيم ، ومما أخرجوه منها الحربة التي طعن بها جانب سيدنا وهي في موكب من الآثار الرائعة ، والعباءة التي ليست بها ندبة والتي لا بد أنها كانت بنفسجية في وقت من الأوقات ثم حال لونها وبهت مع مرور الأيام ، وكذلك أحد المسامير وبعض الشوك الذي كان في تاج سيدنا، وأشياء أخرى جمة غير هذه مثل خشبة الصليب والعمود الذي رفعوا عليه السيد المسيح، كذلك كانت هناك أشياء عدة من مخلفات سيدتنا العذراء الطوبانية والسفود الذي شوى عليه القديس لورنس ، كما رأيت كثيراً من الآثار المقدسة التي حملتها . القديسة هيلانة حين كانت بيت المقدس ثم عادت بها إلى هنا ، وكلها مخلفات جد موقرة، كما يقوم القوم على حراستها حسن قيام ، وقد منَّ الله فلم تقع هذه الأشياء — حين اندحار اليونان — في أبدى أعداء الرب وإلا لأساءوا استعمالها ولتناولوها بغير تبحيل .

ولما غادرنا المكان أبصرنا عند باب الكنيسة عموداً حجرياً ضخماً أطول من الكنيسة الكبرى ذاتها ، على قمته حصان كبير من النحاس المطلي بالذهب، يعلوه فارس قد دفع أحد ذراعيه وهو يشير بأصبعه إلى تركيا ويمسك باليد الأخرى كرة : رمزاً منه إلى أن الدنيا بأجمعها^(١٠٢) في يده ، وقد حدث ذات يوم أن هبت عاصفة هوجاء أسقطته فتدحرجت الكرة، فكان حجمها — كما يقولون — حجم قِذْرِ بَسْعِ خمسة عشر جالونا، وإن بدت للواقف أسفل التمثال في قدر البرنقالة ، ومن ثم يمكن للمرء تقدير ارتفاع هذا التمثال ، ويقال أيضاً إن القوم صرفوا ثمانية آلاف دوكات لحفظ الكرة وتثبيت الحصان بالسلاسل حتى لا يسقط إن هبت الريح وكانت عاتية ، أما الفارس فيزعمون أنه يمثل قسطنطين، وأنه كان يشير إلى أن دمار الإغريق سيأتي من تلك الناحية التي دلَّ عليها بإصبعه ، وكان الأمر كما أشار .

ولقد أمضينا ذلك اليوم حتى وقت الظهيرة ونحن نتأمل في إعجاب تلك الكنيسة وفناءها ، ويوجد خارجها ميادين كبيرة حافلة بالدور التي اعتادوا أن يبيعوا فيها الخمر والحبز والسمك لاسيا الأسماك الصدفية التي يُقبل اليونان عليها أكثر من سواها لاعتيادهم أكلها ، كما أنهم يقتصرون في بعض أوقات صيامهم السفوى على الأسماك الخالية من الدماء وأعني بها الصدفية ، وقد أقاموا في هذه الفواحي موائد كبيرة من الحجر يجلسون إليها لتناول الطعام ، يستوى في ذلك الحكام والشعب حيث يجلسون معا جنباً إلى جنب .

عاد الإمبراطور بعدئذ هو والإمبراطورة وأخوها إلى القصر ، وانصرفت أنا إلى الخان الذي أنزله ، فلما كان اليوم التالي مضيت إلى كنيسة القديسة مريم^(١٠٣) المدفون بها جثمان قسطنطين ، ويوجد بهذه الكنيسة صورة سيدتنا العذراء التي رسمها لها القديس لوقا ، كما يوجد على الجانب الآخر صورة السيد المسيح مرفوعاً على الصليب وهي محفورة على الحجر ، ويقال إنها تزن بإطارها وقاعدتها عدة قناطير ، وتبلغ من النقل حداً يعجز معه ستة رجال عن رفعها ، فإذا كان يوم الثلاثاء من كل أسبوع جاء قرابة عشرين رجلاً يسدلون ثياباً طويلة من التيل الأحمر تغطي الرأس فتبدو أشبه ما تكون بالعباءات ، وهؤلاء الرجال من أسرات معينة ولا يشغل وظيفتهم سواهم ، ويسير موكب كبير فيمضي الرجال الحمر الثياب واحداً بعد واحد إلى التمثال الذي إذا رضى عن واحد دفعه في سركاًئما هو لا يزن أكثر من أوقية ، ثم يضعه حامله على كتفه ويمضي الباقون من الكنيسة وهم يرتلون الأناشيد، ويذهبون إلى أحد الميادين الكبرى حيث يسير حامل الصورة بها من جانب إلى آخر فاعلاً ذلك خمسين

مرة يدور فيها حول الميدان ، فإذا ثبت المرء عينه على الصورة بدت له كأنها مرتفعة عن الأرض وقد تجسدت تماما ، حتى إذا أنزلها إلى الأرض جاء غيره ورفعها ووضعها على كتفه ، ثم يأتي بعده غيره وهكذا ينقضى اليوم وقد رفعها أربعة منهم أو خمسة .

ويعقد في ذلك اليوم سوق بالميدان وتحشد زمر كثيفة من الناس ، ويمسك رجال الدين قطعة من القطن المندوف ويمسّون بها الصورة ثم يوزعون تلك الخرق على من هناك من القوم ، وبعدئذ يعودون بالصورة في نفس المركب ويضعونها في مكانها ، ولم يفتنى يوم من أيام إقامتي بالقسطنطينية حضور هذا العرض لأنه من غير شك إحدى العجائب الكبرى .

* * *

ولقد كانت بالقسطنطينية كنيسة^(١٠٤) ليست في كبر كنيسة أيا صوفيا ولكنها — كما يقول القوم — كانت أكثر منها غناء ، وقد شيدتها القديسة هيلانة رغبة منها في إظهار بأسها وسلطانها ، وعند مدخلها بعض أقواس كانت شديدة السواد ، ويقال إن الناس الذين وجدوا عهدها كانوا يرتكبون جريمة اللواط ، وقد حدث في ذات يوم أن سقطت صاعقة من السماء أحرقت الكنيسة ولم ينج قط أحد من أولئك الخاطئين الذين دهمتهم تلك الصاعقة ، وكانت هذه الكنيسة تسمى كنيسة « فالاييرنا » ، ويقال اليوم إنها دمرت تدميراً لا يرجى معه ترميمها .

ويوجد هناك دير اسمه دير « بنتيكاترو »^(١٠٥) وهو تابع لربان إخوان القديس باسيل ، ولا يوجد نظام من الإخوان في هذه النواحي سوى هذا النظام ، وهذا الدير محلى هو الآخر بالقسيفساء المذهبة ، وبه أوعية الشراب التي ملئت

جاءت في عرس قانا الجليل ، كما يوجد به كثير من الخلفات المقدسة الأخرى ،
وهو مدفن الأباطرة .

ويوجد على الجانب الآخر من المدينة قبالة البحر وتركيا دير للنساء ذو
جدار شاهق الارتفاع ويعرف بدير « القديس ديمترى » ، ويستطيع المرء
أن يطلع منه تركيا عبر أضيق أجزاء المضيق ، ويقوم تجاهه على الساحل
التركي برج تربط بين جانبيه سلسلة إذا ما شُدَّت بينهما حالت دون دخول السفن ،
وكان الغرض من وضعها أن تكون موضعا للفرجة ولعدم ضياع المكوس
التي تجمع في تلك الناحية ، ويسمون ذلك بمضيق السفور الذي يضيق ضيقا
شديدا عند أحد جوانبه حتى ليستطيع المرء أن يرى السائر على الشاطئ الآخر ،
وزيادة على ذلك فالبحر شديد الضحالة عند الجانب التركي ، لكنه شديد
العمق عند الساحل اليوناني بدرجة تتمكن معها السفن — أي كان حجمها
ومهما بلغت ضخامتها — من السير فيه حتى تلامس أسوارا القسطنطينية
ملاسة يخيل معها أن في قدرة الإنسان أن يقفز من الأسوار إلى السفينة .

* * *

وبالقسطنطينية مكان كبير قد أبدعته يد الإنسان وهو كثير الأروقة
والبوابات ، ومن تحته الأقواس التي كان الناس قديما يستعملونها لمشاهدة
الألعاب أيام احتفالاتهم^(١٠٦) بعبلاتهم ، ويتوسط هذا المكان شعبانان قد
أُلفت كل منهما على الآخر وهما مصنوعان من النحاس المكفت ، ويقال
إن الخمر كانت تنصب من فم أحدهما والحليب من فم الآخر لكن لا يستطيع
أحد ما تذكر هذا الأمر ، ويبدو لي أنه لا ينبغي الاهتمام الكثير بهذه
القصة ، على أنه يوجد في وسط هذا الميدان تمثال رجل مصنوع هو الآخر

من النحاس المكفت، ويقال إنه إذا لم يتفق التجار فيما بينهم على ثمن ما يتبايعونه ذهبوا إلى هذا التمثال الذي يسمونه بتمثال العدالة، فإذا قبض التمثال يده عند مبلغ ما كان هذا هو الثمن الحقيقي للبضاعة الذي ينبغي أن يرتضيه الطرفان المتقاضيان، وحدث أن كان لأحد النبلاء جواد يقدر بثلاثمائة دوكات وأراد أحد أغنياء تلك الناحية شراؤه لكن لم يستطع الإثنان الاتفاق على ثمنه، ومن ثم رتبوا أمرهما بالشخص إلى ذلك التمثال للبت في هذه المسألة، فلما ذهبوا إليه أخرج المشتري بضع دوكات ووضعها في يد التمثال المبسوطة فقبضها عليها إشارة منه إلى أن الحصان لا يساوي أكثر من هذا القدر، وحينذاك أخذ المشتري الجواد وتسلم البائع الدوكات، إلا أن الأخير كان يتسمر حنقا فاستقل سيفه الأحذب وضرب به يد التمثال ضربة قطعتها، ومن ثم لم يعد يحكم في شيء أبداً، لكن ما كاد البائع يبلغ داره حتى نفق الجواد وبيع جلده ببضع دوكات، ولست أثق في هذا الكلام ولكن ثقتي الكبرى بما جاء به الرسل في الإنجيل.

وفي الناحية الأخرى من هذا الميدان حمام له أبواب يواجه بعضها البعض فإذا رُميت محصنه بتهمة الزنا أمر القضاة بإحضارها إلى ذلك الحمام وحملوها على الدخول من باب والخروج من الباب الآخر، فإذا كانت بريئة مما ألصق بها مرت خلال الأبواب دون أن يصيبها ما يחדش الحياء، أما إن كانت مخطئة ارتفع ثوبها وقيصها إلى أعلى دون أن ترى هي ذلك وأصبح مكشوفة للعين ما بين وسطها وقدميها.

وفي وسط هذا الميدان^(١٠٩) مسلة مصنوعة من حجر واحد على نمط تلك المسلة القائمة في ردومة حيث يوجد رماد جنة يوليوس قيصر،

وإن لم يكن في الواقع برماده، فليس هو بالناعم ولا بالقديم ، ويقال
لأنها صنعت لجنة قسطنطين .

وحول هذا الميدان وبداخله كثير من المباني ، ويطلق القوم عليها
اسم « الهيدروم » .

. . .

ومدينة القسطنطينية مبنية على شكل مثلث : ثلثها في البحر والباقي في
اليابسة ، وهي مسورة تسويراً حصيناً جداً بصورة عجيبة تدعو لمشاهدتها ،
ويقال إن الترك جاءوا إليها وضيّقوا الخناق عليها ، واستبدت الدهشة بالقائم
على المجانيق والرمي به فقال لعظيم الترك : « مولاي إنه لا يمكن الاستيلاء على
هذه المدينة بالألغام لأن أسوارها قُدت من الصلب ، ولن تقع » ، وكان
قوله هذا لشدة ارتفاع الأسوار، ولأنها صنعت من كتل ضخمة من الرخام قد
التصق بعضها بالآخر ، إلا أن السلطان التركي ظل دائباً على محاولته هذه ،
وإذ ذاك أخبره رجاله أنهم رأوا رجلاً ممتطياً جواداً على السور ، فاستقدم إليه
يونانياً وقع في أسره وسأله عن سر تلك المعجزة التي يرونها كل ليلة ، وأعطى
بها ذلك الفارس الذي يدور حول الاستحكامات على حصانه وهو في كامل
سلاحه ، فأجابه اليوناني : « مولاي ، يقول الروم إن قسطنطين استعمل في
بنائه هذه الكنيسة كثيراً من الرجال ، وفي ذات يوم بينما كان الجميع
منصرفين لتناول غذائهم أمر كبير الفعلة أحد الأطفال بالوقوف هناك وحراسة
الآلات ، فأطاعه الطفل ، وإذ ذاك ظهر رجل شديد الجلال على ظهر حصان
وقال للطفل لم لا تذهب وتأكل مع الآخرين ؟ فأجابه الصغير « لقد أمروني
بأن أبقى سيدي بالبقاء هنا لحراسة الآلات » ، إلا أن الفارس أمره بالانصراف

وتناول الطعام ، فأجابه الطفل إنه لا يجرؤ على الانصياع لأمره ، فقال له الفارس « انصرف ولا تخف ، وأنتى لأعدك بأننى سأحرس الكنيسة والمدينة حتى تعود » ، فانصرف الطفل ، إلا أن خوفه مما سيحقيق به من العقاب حمله على ألا يعود ومن ثم بقي الفارس وفاء بوعده ، ويقول الناس ما كان هذا الفارس إلا ملاكا .

لكن قد يقال الآن إن الطفل عاد وكفَّ الفارس عن الحراسة لأن المدينة قد سقطت واحتُلت ، إلا أن الترك حينذاك انكفأوا راجعين عنها . ولا بد أن قصر الإمبراطور كان رائعا جدا^(١١٠) ، أما الآن فهو والمدينة في وضع يشير إلى الأحوال التي كابدها الأهليون ولا زالوا يكابدونها ، ويوجد عند مدخل القصر حنية رخامية مفتوحة ، حولها مقاعد من الحجر وكذلك أحجار أشبه بالموائد رفعت على أعمدة أمامها وممتدة على طول الجانبين ، ويوجد هنا كثير من الكتب والمؤلفات والتواريخ القديمة ، وعلى أحد الجانبين أدوات اللهو واللعب لإمداد قصر الإمبراطور بها على الدوام ، أما البيت — من الداخل — فسيء الترتيب غير بعض نواح ضيقة يعيش فيها الإمبراطور والإمبراطورة وحاشيتهما .

* * *

أما حالة الإمبراطورية فهي من الأبهة بالصورة التي كانت عليها من قبل فما زالت الحفلات القديمة على ما كانت عليه وإن أصبح الإمبراطور أشبه ما يكون بأسقف من غير أسقفية ، وإذا ما خرج للنزهة روعيت جميع التقاليد الملوكية ، وتركب الإمبراطورة على ركاب من السرج فإذا أرادت اعتلاء الجواد أمسك سيدان لها قطعة من القماش الفاخر ورفعا أيديهما وأدارا

لها ظهرها، حتى إذا ألفت برجليها عبر السرج لم تمس اليد قط أى جزء من جسمها .

* * *

واليونان صيادون مهرة بالبزاة والصقور والكلاب ، والقطر ملء بألعاب الصيد والقنص ، وتكثر به أنواع الطيور والدراج والحبال والأرانب ، وأرضه منبسطة وصالحة للركوب .

ويتنثر سكان المدينة فى جميع أرجائها ، وهى مقسمة إلى أحياء أكثرها اكتظاظا بالسكان ما كان واقعاً على شاطئ البحر ، وليس ثم أثر للجدّة على ملابس الأهالى ، بل إنها أدلّ ما تكون على التّعاسة والفقر ، وأفصح ما تترجم عن شظف الحياة التى يميوئها، وإن لم يكونوا قد بلغوا من الشقاء ما يستحقونه لأنهم قوم أشرار غارقون فى الخطيئة إلى الأبدان .

ومن عاداتهم — إذا مات لهم ميت — ألا يفتحوا باب دارهم طوال تلك السنة إلا للضرورة القصوى ، ثم يتجولون على الدوام فى المدينة مولولين كما لو كانوا يندبون ، وبذلك تغاءلوا منذ زمن بعيد بالشر الذى حاق بهم .

وتوجد الترسانة على أحد جانبي المدينة قرب البحر ولا بد أنها كانت من قبل رائعة جداً بل لا تزال حتى الآن كافية لاستيعاب السفن ، أما فى الناحية التى تطل على يبريه فقد أقاموا رصيفاً تشدّ إليه السفن ، وتبلغه المياه للملحة حيث تلتقى بنهر يصب فى البحر فى هذا المكان ، وتقدر المسافة الفاصلة بين هذه البقعة ويبريه بضعف رمية حجر ، فإذا جاءت السفن إلى يبريه للمتاجرة مع الجنوبية كان عليها أن تبدأ بتحية القسطنطينية ودفع الضريبة لها ، وتعتقد بالقسطنطينية الحاكم الجنائية الخاصة بيبريه وجميع القطر ، ويزدحم

هذان الميناءان على الدوام بالسفن التي تحمل البضائع الكثيرة ما بين
صادرة وواردة .

وقد حدث في أحد الأيام أن بعث القبطان القشتالي في طابى إذ لاقى أحد
بحارته القتل على يد يونانى أراد سرقة السفينة ، فتوجهت إليه وأخذنا
الجانى وبهارته إلى الإمبراطور حتى يقيم الحد على القاتل ، وعلى الرغم من
كراهية اليونان لانزال العقاب بهذا الجرم إلا أن الإمبراطور راعى خاطرى، وقد
حذرتة من أن يعمد رجالنا للثأر لصاحبهم فتقع جريرتة على الأبرياء ، ومن ثم
أرسل فى الحال فى طلب الجلاد وأمر بقطع يد الجانى أمام القصر وسئل عينيه ،
فسألت عما يحول بينهم وبين قتله فأجابونى بأن لبس فى قدرة الإمبراطور
الحكم بالإعدام ، وأنأونى أيضاً أنه لما استولى شرلمان على بيت المقدس عمد
كثير من رجالاته — فى طريق عودتهم — إلى السفر عبر بلاد اليونان ففتك
أهلها بطائفة كبيرة منهم ، فلما علم البقية بما جرى مضوا عبر بلاد التتار وروسيا
حيث توجد جماعات مسيحية ومضوا من هناك إلى المجر وألمانيا ، ويقال إن
شدة جمال روس هذه النواحي يرجع إلى استقرار كثير من الفرنسيين بها
وتزاجهم مع أهلها ، ثم زحف الإمبراطور شرلمان على القسطنطينية وشن
حرباً ضروساً على إمبراطور اليونان ، وانهى الأمر أخيراً بالصلح بينهما ،
وآلى الإمبراطور على نفسه — تكفيراً عن قتل هؤلاء الرجال — أن يظل
صائماً طول أيام الصوم الكبير الذى يقال إنهم يخالفوننا فى مراعاته (لأن
اليونان لا يستطيعون التوفيق بينه وبين ضمايرهم فى أكل اللحم بالدم بل
يقتصرون على الأسماك الصدفية) ، وزيادة على ذلك فإنه لا يمكن الحكم
بالإعدام على كائن من كان مهماً عظمت جريمته ، بل يكتفى فى العقاب

بقطع الأيدي وسمل العيون ، ومن ثم تحفل بلاد اليونان بالكثيرين من
مبتورى الأيدي والعميان .

وهكذا كانت الطريقة التى أقرت بها الطاغية العدالة ورضينا نحن بما فعل .
وحدث فى أثناء إقامتى بالمدينة أن زحف السلطان التركى إلى مكان على
البحر الأسود حتى أصبح على مقربة من القسطنطينية ، فصور الخيال للطاغية
ولأهل يبريه أن الأتراك قادمون لاحتلال البلد فتهيثوا لقتالهم وأعدوا
سلاحهم^(١١) ، لكن السلطان التركى مرّ مصاقباً للأسوار ، وجرت فى ذلك
اليوم بعض مناوشات ، ثم اجتاز الناحية وفى صحبته جمع كثيف من الناس ،
ولقد كان من حظى الطيب أن رأيت فى الميدان وشاهدت أسلوبه فى الخروج
إلى القتال كما شاهدت سلاحه وكراعه وجياده وعتاده ، ومن رأى أن الترك
لا يستطيعون التغلب على جيوش الغرب إن هم التحموا بها ، وليس ذلك
لضعف قوتهم بل لما ينقصهم من كثير من ضروريات الحرب .

وحدث فى هذا اليوم أن حمل القوم هدية كبيرة من القسطنطينية إلى الأتراك
حيث يقيمون ، وكنت أظن أنهم سوف يبقون حيث هم ويحاصرون المدينة
ولكنهم تابعوا زحفهم إلى البحر الأسود لقتال الجماعة التى كانت قد ثارت ضدّهم
وتمردت عليهم ، وكان ما تمنيت له إذ لم يكن لدينا إلا القليل من الرجال ، وللقاومة
أمراً بالغ الصعوبة والمشقة ، ومن ثم كان من أحسن الأمور وقعا على النفس
وإدخال المسرة عليها رؤية مثل هذا الجيش المرمم وهو يرحل دون أن
ينزل ضرراً ما بالبلد أو يرهقه من أمره نصبا ، وكان فضل الله عظيماً أن
لم يكن أبناء وطنى قريبيين من مسرح هذه الأحداث ، إذ لا توجد هنا قلاع
ولا سفن تحميهم ، وما من سبيل للحماية سوى القتال .

الفصل الثامن عشر

بروسة . بيريه . الرحيل عن القسطنطينية . تافور ينقذ

بعض الرقيق النصارى . ميتلين . سالونيك .

العاصفة . راجوزا . أنسكونا . سبالاتو .

الوحش البحرى

. . .

وفى اليوم التالى سألت جنوبيا من أصدقائى له دار فى إحدى المدن التركية التى يسمونها بروسه^(١١٢) الواقعة عند الطرف الأقصى من خليج نيكوميديا^(١١٣) أن يأخذنى معه فاستجاب لسؤالى وأخذنى فى صحبته حيث أبحرنا ، ورأيت المدينة وهى غير مسورة وإن بزّت جميع مدن تركيا من حيث الضخامة والجمال ، ويبلغ سكانها قرابة أربع آلاف نسمة ، ولولا الخليج الذى يسلكه التجار فى اتصالهم بالمدينة ويجلبون إليها براً أكثر من الأنباء من فارس لما بلغت هذه الدرجة من الأهمية ، وهى واقعة قرب اليونان ، وقد عنى الترك بها منذ تملكهم إياها لأنها أحد معابرهم من اليونان إلى بلادهم ، وقد أقاموا بها مخازن كبيرة لأنهم يستعملون المدينة كمحطة بحرية فى الطريق ، ولا أعتقد أنه يوجد فى تركيا بأجمعها اليوم مثل هذا المكان فى كبره وازدهامه بالسكان وثرائه ، وقد عدت منها إلى القسطنطينية وبيريه التى خرجت منها أولاً .

وسكان بيريه^(١١٤) يقربون من ألفى نسمة ، وهى حصينة التسوير متينة

الاستحكامات ، وخذقتها قوى ، أما كنفائسها وأديرتها فرائعة ، كما يوجد بها

دار للتبادل النقدي جميلة حسة البناء جيدة التسوير ، ومبانيها شاهقة فاتنة-
كبانى جنوه ، وجمهور عامتها من اليونان وإن كانوا تحت حكم الجنوية الذين
يقولون جميع الوظائف ، كما أنها مركز النشاط التجارى للبضائع الواردة من
البحر الأسود وكذلك من الغرب ومن سوريا ومصر ، ويمتاز جميع تجارها بالثراء
الفاحش ، وكانت يبراً تسمى من قبل بقلطه .



بقيت بعد عودتى من البحر الأسود مدة شهرين فى القسطنطينية وبيريه ،
ثم أبحرت فى مركب من سراكب « أنسكونا » مستصحبا معى عبيدى
والحوائج الأخرى التى اشتريتها فى كافا ، وركبنا البحر سالكين الطريق الذى
جئنا منه مختلفين القسطنطينية ورائنا ، واجتزنا « أرجلى » و « سيسلبريا »
و « صرمرة » و « غالبيولى » ، وفى أثناء عبورنا مضيق البسفور قرب الدردنيل-
الذى هو مدخل ميناء طروادة - أبصرنا جماعة من الناس يشيرون إلينا بإشارات
خاصة يدعوننا بها للقدوم إلى الشاطئ ، فقال الربان إنه عرف فيهم الأسرى
النصارى الذين يشتهون الهروب فى سفينتنا وأنه لا ينبغى علينا الاكتراث بهم ،
إلا أنى توسلت إليه أن يُنزل قارباً إلى البحر ليمضى لإقناذهم ، ذاكرأله أننا
إذا تركناهم لما هم فيه فلا محجب إن رمانا الله بنكد الطالع ، وسرعان ما استجاب
لى الربان وأنزل زورقاً ركبته أنا وأربعة آخرون ورحنا نهدف ميممين الشاطئ ،
فلما أخذنا فى الاقتراب منه ظهر جماعة من الترك ، وإذ رأوا أننا قدمنا لأخذ
الأمرى شرعوا فى الهجوم علينا ، ولما كان ربان السفينة على استعداد لكل
شئ فقد أنفذ قارباً آخر به عشرون رجلاً مزودين بالسهم والأسلحة النارية ،
فجاء القارب إلى الشاطئ وتمت لنا الغلبة على الترك وانكفأنا سالين ياخواننا .

النصارى ، ولقد أصبت بجروح فى قدمى من سهم رميت به ، إلا أنه سرعان
ما اندمل ونجحنا فى مهمتنا إذا لم نفقد شيئاً لأننا كنا فى خدمة الرب .

* * *

بحرنا فى هذا اليوم تاركين مضيق رومانيا ، وأرسينيا فى ميناء «تينيدوس»
المواجهة لطرودة ، فلما كانت الغداة رحلنا من هناك واتثنينا إلى رأس «سانت
ماريا» ، فجئنا إلى جزيرة مالطة التابعة للجنوية حيث وجدت إمبراطور
طرايبزون الذى كان قد فر من أخيه متزوجاً - كما قلت - ابنة أحد الحكام
بغية الحصول على مساعدته له - وكان الإمبراطور يجمع السفن لإرسالها
إلى طرايبزون لقتال أخيه ، فراح القوم يستفسرون منى عن وضع الأمور
فى طرايبزون كما رأيتها ، فأنبأهم بالحقيقة ، وأن السلطان التركى لو وقف
ضدهم لما استطاعوا القيام بعمل شئ ما يكون فى صالحهم وينزل الضرر
بأعدائهم .

وبوجد بهذه الجزيرة كثير من حجر الشب فأوسقنا سفينتنا منه ، حتى
إذا فرغنا من ذلك أبحرنا واتجهنا إلى بلاد اليونان سالكين طريق
سالونيك ، وتقوم فى هذا البحر جزيرة عظيمة جداً يسمونها جزيرة
«مونت سانتو» كان السلطان التركى - أبو السلطان الخالى - قد حاول
الاستيلاء عليها لولا أن الطاعون نزل بجنده ففك بهم فاضطر كارها لأن
يصدر أمره بترميم جميع ما خربه وتزويد من يعيشون فيها بالمؤنة ، هذا
المكان مرتب على الصورة التالية ، ذلك أنه يوجد دير عند سفح الجبل
وآخر فى منتصفه وثالث عند فمته ، ولا يسمح بالانخراط فيه إلا لمن كان
شريف المولد أو فارساً أو أن يكون كهلاً غير قادر أو ذاعاهة ،

فيأتي هؤلاء إلى تلك البقعة ويقيمون في الدير الأول ، ويأخذ الرهبان في مراقبتهم عن قرب ومطالعة أسلوب معيشتهم ، فإن سلكوا مسلكاً كريماً انتخبوا منهم من يعيشونهم إلى الدير الثاني الواقع في الوسط حيث تطبق نفس القواعد ، فإذا أقرّ الرهبان تصرفاتهم بعثوا بهم مرة أخرى إلى الدير الثالث الأخير ، ويقولون إن من يعيشون هناك مشهورون بالقداسة ؛ كما أن المكان مزار كبير للحجاج ويتلقى كثيراً من الصدقات ، إلا أن زائري هذا المكان لا يذهبون إلا للدير الأول ، وجميع الرهبان من اليونان من أتباع القديس باسيل ، وهم لا يقتصرون في الامتناع عن اللحم فحسب بل لا يتناولون أيضاً كل سمك فيه دم .

رحلنا من هناك جاعلين خليج سالونيكاً على يميننا ، وتوجد عند نهاية الخليج المدينة التي ضاعت من البنادقة منذ فترة قصيرة وكان ضياعها على الصورة التالية^(١١٥) ، ذلك أن الترك قدموا لمهاجمتها بالرجال برأ وبالسفن بحراً ، فأعدّ البنادقة أسطولا ضخماً ، إلا أنه يقال إنهم تشاوروا فيما بينهم واتفقوا الإجماع على التخلّي عن سالونيكاً لسببين أولهما : أنه لم يكن في استطاعتهم مقاومة قوة الترك برأ ، وثانيهما : ما يتكبّدونه من تكاليف الدفاع عن هذا المكان ، أضف إلى هذا أن كسبهم منه ضئيل لعدم صلاحية الميناء صلاحية تامة للتجارة ، وهكذا آثر البنادقة وسواهم من الإيطاليين الكسب على الشرف ، غير أنهم خرجوا بأسطولهم لصد الترك الذين حطموه ولم ينج منهم أحد ، وبذلك ضاعت مدينة سالونيكاً .

ثم جئنا بعدئذ إلى جزيرة « نيجرو بونتو » ، الواقعة في بحر الأرخبيل ويحكمها البنادقة ، ويقال إنه كان في الأزمنة القديمة جسر يصل بينها وبين

البلاد الأصلية ، ويقطن اليونان الجزيرة التي تزخر بالبساتين الكثيرة والفاكهة ، ومن هناك أبحرنا في الأرخبيل مارين بكثير من الجزر الآهلة بالسكان وغيرها من المدن الفقيرة منهم ، حتى إذا كان يوم عيد العنصرة استرحنا في جزيرة يدعونها « أوروس » .

أبحرنا في أيام العيد وكانت الريح رخاء في بحر الأرخبيل ، إلا أنه هبت عند منتصف الليل عاصفة هوجاء ثار لها البحر ثورة يثسنا فيها جميعاً من النجاة ، وكان هناك كثير من النذور التي راح ينذرنا حجاج الشرق والغرب إن قُيِّضَتْ لهم النجاة ، وسرعان ما امتلأت سفينتنا بالطيور التي راحت تحط على أكتافنا ، وقد دفعتها العاصفة للطيران فراحت تنشد في السفينة ملجأ لها من الفرق ، وكان المهدد أكثرها ، ويقال إنه قلما يحدث مثل هذا الأمر إلا في أثناء العواصف العاتية ، على أننا بلغنا جزيرة « كريت » عند صلاة الغروب بأشعة ممزقة وقد دفعتنا الريح إلى ذلك القسم من الجزيرة المسمى « بكناي » ، ورحنا نسير أمام العاصفة حتى بلغنا الساحل فأرسينا عنده ، وبقينا يومنا وليلتنا هذه وكذلك اليوم التالي حتى العصر ، وكان هناك راهب رآنا في اليوم السابق ونحن نسير بصوار جرداء من الأشعة ، وراقب السفينة وهي ترسو عند الشاطئ دون أن يلح خيال أحد يبلغ الأرض ولم ير أية حركة في المركب ، ومن ثم ركب زورقه وجاء إلينا فوجدنا نائمين ، وكان العجب قد استقْبَدَ به من قسوة العاصفة في جنح الليل وخشى أن تحمل الريح كوخه وتدمره ، فلما رآنا قادمين مع الفجر شكر الرب على نجاتنا ، أما الريان فقد بقي في السفينة يصلح أشرعتها ، على حين مضيت أنا ورجالي إلى الشاطئ في حجة الناسك لرؤية قَلَائِته ، وحملنا معنا ما كان لدينا من الطعام

بالسفينة لا سيما ذلك النوع من السمك الذى يأكله الرهبان اليونان ، ولبثنا
فى صحبته ثلاثة أيام فى غاية الفرح ، وبعث هو بعضا مما عنده من القوت إلى
ربان السفينة ، أما أنا فقد لقيت من الأهوال ما لو كنت صادفته وأنا فى البر
لما فكرت قط فى أن أركب البحر ثانية .

بئد أننا أبحرنا مرة أخرى فى اليوم الرابع وجئنا إلى « مودون » ، وبقينا
خارجها فترة يومين نظرا لأنها غير صحية ، ثم رحلنا مصاقبين لساحل بلاد المورة
حتى أدركنا خليج « باتراس » مجتازين جزيرة « كورنو » التى وصفتها^(١١٦)
من قبل ، ثم دخلنا خليج البندقية جاعلين لإيطاليا على يسارنا وساحل ألبانيا
على يميننا ، وأبصرنا كثيرا من المدن والقلاع القوية على ساحل البحر ، وطالعنا
مدينة اسمها « فالونا » كان الترك قد استولوا عليها وأخضعوها لحكمهم .

وتقناثر الجزر فى شتى أرجاء البحر هنا ، وبعضها أهل بالسكان والبعض
الآخر مقفر غير مسكون ، وحين بلغنا ساحل « إسكلافونيا » جئنا إلى مدينة
اسمها « راجوزا » تابعة لإمبراطور ألمانيا ، ويسمى إقليم إسكلافونيا بأقليم
« دلاشيا » ، وتكثر فى هذه النواحي أجمل أنواع الصقور وذلك لأن الأقليم
جبل مرتفع ، كما أن أهله أطول من كل قوم رأيتهم فى أى مكان آخر ،
ويقال إن فى دلاشيا وألبانيا كثيرا من مناجم الفضة .

ومدينة « راجوزا » شديدة الحصانة ، وهى تقع على نجد مرتفع يشرف
على البحر وحافلة جدا بشتى أنواع البضائع ، كما أنها تواجه إيطاليا ويستطيع
المرء أن يرى من الجانب الآخر « أنكونا » وضواحيها ، وقد أقنا هنا يوم
رحلنا بعده إلى « أنكونا » لأن سفينتنا كانت مرتبطة بالمضى إلى هناك
لتفريغ بعض حمولتها ثم الذهاب إلى البندقية ، وصادفنا فى هذه الليلة عاصفة

قوية، فلما كان وقت غروب اليوم التالى بلغنا أنكونا وأرسينا عندها ثم
نزلنا إلى الشاطئ .

أقنا بأنكونا أربعة أيام ، والمدينة بجميع نواحيها من أملاك الكنيسة ،
وهى محكمة التحصين منيعة الأسوار ، وجميع دورها مخروطة البناء شاهقة
الارتفاع على نمط دور جنوة ، ويزعم الناس فيما يزعمون أن باني جنوة وأنكونا
واحد ، ويتجلى بأوضح صورة من مبانيها أنها موعلة في القدم ، وهى مركز حى
للتجارة ، وتبنى بها كثير من السفن التى تشق البحار بما تحمله من البضائع ،
كما أن أهلها يحترفون فى السبر التجارة أكثر من سواها ، والأقليم زاخر
بالحبوب والخبز والفاكهة وبكل ما تتطلبه الحياة ، وكان قد أشيع وقتذاك
أن الكونت فرانشسكو - الذى كان قد غزا جزءا كبيرا من الناحية -
راغب فى الاستيلاء على أنكونا ، فأخذ أهلها فى الاستعداد للدفاع عنها ،
وعلمت بعدئذ أنه قام بهذه المحاولة لكنه عجز عن دخول المدينة .

أبحرنا بعد أربعة أيام واقتربنا من دلاشيا ، والساحل غاص جدا بالبحارة ،
ومرجع ذلك أنه مرفأ أمين رائع لا يوجد له أى ضريب على الجانب الإيطالى ،
وإذ سرنا على طول ساحل دلاشيا - ومررنا بكثير من الجزائر المأهولة والفقرة
كما هو الحال فى جزء الأرخبيل رغم أنها فى حجمها وتعداد سكانها ليست
كبيرة - أقول إذ سرنا على طول هذا الساحل بلغنا مدينة اسمها « سبالاتو »
وتقع هى الأخرى فى دلاشيا ، وقد ولد فى هذه المدينة القديس « جيروم »
والقديس « كريستوفر » . ويوجد هنا لسان من البحر يمر بقرية صغيرة يقال
إن القديس كريستوفر حمل بها الفقراء الذين عجزوا عن دفع أجرة القوارب ،
ولا تزال حتى اليوم آثار دارى هذين القديسين ماثلة .

وطالما حدث في كثير من المرات أن اختفت النسوة اللاتي يغسلن ثيابهن دون أن يعرف أحد ما السبب، وكان اختفاؤهن في الخليج الذي يمتد داخل الأرض، وقد حدث ذات يوم -والنساء كعادتهن في الماء- أن ظهر وحش نصفه الأسفل على شكل سمكة ونصفه الأعلى آدمي وله أجنحة كالخفاش، وهاجم إحدى النساء وأمسكها ثم غاص بها تحت الماء، فلما سمع النسوة الأخريات صراخها الذي ترامى أيضاً إلى سمع بعض الرجال الموجودين هناك هبوا إلى الناحية التي كان العراك ناشباً فيها بين الوحش والمرأة، لكنه لم يدعها تغلق من بين يديه رغم مهاجمتهم إياه، وقد أصابوه ببحر وسحبوه إلى الشاطئ حياً، وبقي على هذه الحال ثلاث ساعات أو أكثر حتى مات، ومن ثم لم يعد شك في أن النسوة اللاتي اختفين من قبل قد وقعت فريسة لهذا الوحش الذي أخذه القوم وبقروا بطنه وحشوه ملجأ وبعثوا به إلى مجلس البندقية كي يرسلوه إلى البابا يوجين، ورسمت له صورة حملت إلى قشتالة وإلى كافة أرجاء الدنيا، ولم أر الوحش لكنهم أنبأوني بنبئه ولم يكن قد مضى وقت طويل على ذلك الأمر.

وهذا المكان أسقفية، ولقد رأيت في بلاط البابا أسقفها وهو من أهل فرنسا.

الفصل التاسع عشر

البندقية . الحج الجديد . الاستيلاء على مضائق
طافور ثم ردها إليه . حفل عرس البحر .
كنز القديس مرقس . الإمبراطور
بربروسة والبابا .

...

غادرنا سبولاتو وبلغنا بلدة تدعى «بارنزو» التي تقع عند رأس دلماشيا قبالة
البندقية ، ويحكمها سيد إقطاعي ، ويتحتم على السفن الراغبة في الوصول إلى
البندقية أن تلتقى مراسيها بها أولاً في انتظار الفرصة لدخول المضائق الواقعة
بين القلعتين ، ويتوفر الملجأ الطيب والمرسى الواقع على طول ذلك الشاطئ ،
فلما كان اليوم الثاني أبحرنا إلى ميناء البندقية وألفينا كثيراً من السفن الراسية
خارجها في انتظار الإقلاع ، ومن بينها غراب لبيت المقدس دلت عليه
بيارقه ، فلما سألنا القوم عن هذا الاستعداد في كل شيء ذكروا لنا أن اليوم
يوم الصعود وأنه مفروض على كل شخص - بعد سماع القداس وتناول البركة -
أن يمضي إلى سفينته استعداداً للرحيل ، وكنت في مثل هذا اليوم وفي مثل
تلك الساعة منذ عامين قد أبحرت قاصداً بيت المقدس ، ^(١١٧) وسألت عما إذا
كان هناك بين الحجاج قشتاليون ، فأنبأوني بأن «جوتير كيسادا»
و«بيرو بارفادي كامبوس» ذاهبان إلى بيت المقدس وأنهما الآن في المدينة
لمشاهدة الاحتفالات التي كانت قائمة على قدم وساق ، فدخلنا الميناء ونزلنا
أمام كنيسة «سنت مارك» (القديس مرقس) ، واتجهنا في الحال إليها لسماع

«القداس حيث ألفينا حشداً كثيفاً من الناس احتفاءً بما أصابه البنادقة يوم
السعود من نصر عظيم على الإمبراطور بربروسة ، كما سأروى خبره فيما بعد .

وهنا وجدت «جوتير كيسادا» و«بيرو بارقا» و«ولوس بانيجاس»
و«خوان دى أنجلو» أخا «فرناندو دى أنجلو» وسواهم من القشتاليين
الذين سررت بهم كثيراً ، ولم يكونوا دونى سروراً بتلاقاتهم إياي ، ولما كانوا
ماضين إلى بيت المقدس فقد كانوا ملتمين بأحسن الوسائل في الرحلة ، وأنبأتهم
أنا من جانبي بما يتحتم عليهم أن يفعلوه وكم تكلفهم هذه السفرة ، لكن يبدو
إلى أنهم انشقوا فيما بينهم على أنفسهم وسافروا في مواكب متفرقة ، فبذلت
غاية جهدي للتوفيق بينهم فلم أفلح في مساعي ، وهكذا غادر بعضهم
المكان إلى المركب الشراعى ، ومضى الآخرون إلى المركب الذى خصص
للفقراء ، وتفدينا معاً ذلك اليوم ، وبعد انقضاء الاحتفال وتناول الغفران التام
ضد الخطيئة والعقاب وبعد البركة رافقتهم إلى البحر وشاهدتهم وهم
يرحلون مبكرين .

ثم عدت مع بقية القشتاليين إلى المدينة فوجدت القوم قد استولوا على
ما كنت قد جلبته في السفينة من بضائع ومن بينها العبيد وغيرهم بحجة أنه
لا يتأتى لأحد ما أن يجلب تجارة من البحر الأسود إلا إذا كان من أبناء
«البندقية» وأنى لم أنبئ السلطات المجركية بما معى ؛ ولما كان هذا اليوم يوم
عيد ضخم فقد احتشد الناس في قصر القديس مرقس واصطفوا على أبداع
صورة ؛ ثم دخل القصر سبعة فرسان أو ثمانية يرتدون شارة الإمبراطور
«سجسمند» التى أحلها ؛ فذهبت في التو إليهم وشكوت لهم ما وقعنى ؛ وإذذاك
اصطحبوني إلى الدوج وهو حاكم البلد ؛ وذهب إلى هناك أيضاً القشتاليون

الذين كانوا موجودين ؛ وتحدثت إلى الدوج - وكان في مجلسه - ورفعت إليه شكواي ، فدألتى أعضاء المجلس أن أتعيب برهة حتى يناقشوا الأمر فيما بينهم ، وسرعان ما نادونى قائلين :

« أيها السيد الفارس ؛ حقيقة أن عندنا قانونا يحرم على أى شخص من غير أهل البندقية أن يجلب معه إلى هذه المدينة شيئا ما من البحر الأسود أو ساحل الشام ؛ فإن فعل ذلك صودر كما صودرت بضاعتك وفق هذا القانون الذى يجب أن يطبق على التجار ؛ ومهمتك تحول بينك وبين التجارة ؛ أضف إلى هذا أن ما تحمله معك إنما هو لنفسك ومن ثم فإن القانون لا ينطبق عليك ، وسترد إليك بضاعتك ، وإذا كان فى القانون ما هو غير ذلك فإن المجلس سيتفضل بدفعه ؛ كذلك فإننا سنؤدى لك جيلا كبر نظراً للأمة النبيلة التى تنتمى إليها ، ذلك أننا لن نكتفى برد مالك إليك بل سنمنحك اجازة لنقل بضاعتك آنى شئت ، وهذا امتياز لم تجر العادة بمنحه لأى أحد ما إذ يستحيل إخراج شىء من البندقية يكون قد دخلها . »

فاستأذنت بمدتذ فى الانصراف من الدوج الذى قدم إلى أعطيات طيبة ، وانصرف معى أولئك السادة الذين صحبونى ولم يتركونى حتى بلغت مقامى ، كما بعثوا إلى فى ذات اليوم نبیذاً وحلوى ووسائل مسلية ، وكانوا كلما قابلونى بالغوا فى الترحاب بى كما لو كانوا من عشيرتى الأقربين .

وفى يوم الصعود أظفوا احتفالات كبرى وعرضوا جميع مدخراتهم ومن بينها كنوز القديس مرقس ، وعرضوا الجواهرات فى الشوارع عند أبواب المنازل ، وأخرج الصيارفة للفرجة ما لديهم من ذهب وفضة ، وطلع الرجال والنساء فى أبهى ما لديهم وترتبنوا بغالى الجواهر .

ويذهب الدوج في هذا اليوم في أبهة بابوية وزينة إمبراطورية، وهذا حق
له في هذا اليوم كما يقولون ، وتجري الاحتفالات الضخمة ، حتى إذا فرغ من
سماع القداس ذهب مع جميع رجال الدين إلى البحر وركبوا السفن ؛ فيركب
الدوج واللوردات في سفينة تدعى « بوتشندورو » ، وهى أكبر ثلاث مراكب
من الغراب وضعف حجم المركب ويجلس المجدفون في قاعها لا يرام أحد ،
وتغطى السفينة كلها بقمش من الذهب ووسطها بالسجاد الجميل ؛ فإذا وفد
أغراب أو رجال من عليا القوم أخذهم بها أيضاً وهم يحملون الصليبان والرايات
الصفيرة للثلثة التى أسرف القوم في تطعيمها بالذهب ؛ ويصبح البحر غاصاً
بالسفن حتى قل أن ترى العين ماءه ، فيبحرون ويمضون إلى مدخل الميناء
حيث تقوم القلعتان ، وهناك يقف القسيس يلقى خطبة خاصة بمنح الناس البركة
ويرشهم بالماء المقدس، ويسحب الدوج خاتماً من إصبعه ويقذف به إلى البحر ،
وهذا - كما يقولون - تقليد قديم لزواج البحر بالأرض لفت غضبه لقيام
مدينتهم عليه وتوقف جميع ما يملكه عليه .

ويفرغ القوم من ذلك قبل ساعة من قيام جميع السفن، وبعد نواحم البركة
يفشرون أشراعتهم ويمضون في سبيلهم وهو أمر فريد يستحق المشاهدة . ثم يعود
الدوج مع جميع كبار رجالته إلى ساحل رملى بين القلعتين حيث يقوم دير
معروف للإخوان ، وهناك ينادرون السفن ويحتفلون جميعاً مع الدوج :
كل ذلك على نفقته الخاصة ، حتى إذا كان المساء عادوا إلى المدينة .

وفي هذا اليوم ذهبت لمشاهدة ثروة القديس مرقس ، وذهب معى فئة
خاصة من أهل المدينة حتى أشاهد كل شيء رغم أن كل شيء كان معروضاً
للعيان ، وهناك أبصرت مقادير هائلة لا سيما من اللؤلؤ والأحجار الكريمة

وكيات من الياقوت الأحمر والماس والياقوت من بينها ثلاثة أحجار في ثلاثة شمعدانات ولكنها غير مثبتة حتى يتمكن المرء من تناولها بيده ورؤيتها .

وهناك تيجان الأساقفة محملة باللاؤاؤ والأحجار الكريمة والفضة ، وكذلك صدارى الكهنة . غطاءة هي الأخرى بالمجوهرات واللاآء . وكيات كبيرة من الذهب والفضة ، ويقولون أيضاً إنه توجد قطعة نادرة من العقيق الأحمر ، والواقع أنه يوجد معرض أكبر من الثروات لم أره قط ، كما يوجد رف خلف المذبح قد غطته اللاآء . والأحجار الكريمة ولكنها لا أستطيع الإسهاب في الكتابة عنها لأن ذلك يستنفد جزءاً كبيراً .

ويقول البنادقة إن الإمبراطور بربروسة حارب البابا كي يستولى على جميع أملاك الكنيسة مما حمل البابا على الفرار والالتجاء إلى البندقية حيث بقى فترة طويلة في أحد الأديرة دون أن يكشف أحد أمره (١١٨) ، حتى تأتى لواحد أن يعرف السر ويراه ، فأفضى بالنبا إلى الدوج الذى ذهب مع رجال مجلسه للبحث عن البابا في هذا الدير ولكنه لم يستطع العثور عليه ، فأمرؤا بإحضار جميع الإخوان وأنزلوهم إلى المطبخ ، وإذ ذاك وجدوا البابا لأنه كان الطاهى فأخذوه وحملوه معهم وألبسوه الملابس الخاص به وأنزلوه في قصر الضيافة وأحاطوه بالتوقير ، وكتبوا أيضاً إلى رومة وإلى جميع نواحى إيطاليا ذاكرين أن البابا عندهم ، وأفضوا بالخبر إلى الإمبراطور متوسلين إليه أن يرد إلى الكنيسة أملاكها حتى يعود البابا إلى رومة موقراً ، فاستشاط الإمبراطور غيظاً من البابا والبنادقة ، وجهز أسطولاً قوياً بالسلاح قصد به البندقية حتى شارف الحصنين حيث كان للبننادقة أسطول ضخم هناك

أخرجوه لصدده ، فقاتلوه وأنزلوا به الهزيمة حتى أزموه الفرار ، وأخذوا ولده أسيرا عندهم .

والتمس ابن الإمبراطور — حين وضعوه في السجن — من البابا إطلاق سراحه ، قاطعا العهد على نفسه له بأنه سيجادل إعادة أبيه إلى الطاعة ، فإن فشل في محاولته عاد إلى الحبس .

فاستجاب البابا بعد استشارة المجلس ، وبعث به في غراب إلى مدينة « أنكونا » حيث كان أبوه ، فتكلم معه وتوسل إليه أن يعود لسابق طاعته للبابا والخضوع له وأن يرد إليه ما كان له من قبل ، فلما باءت محاولته — في إقناعه — بالفشل عاد إلى حبسه .

بيد أنه لم تسكد تنقضى أيام قلائل على هذا الأمر حتى أرسل الإمبراطور مبعديا رغبته في السماح لابنه بالعودة إليه ثانية للتحدث معه رغبة منه في استجابة الاقتراحات التي قدمها إليه بشأن البابا ، فالتمس الابن الإذن من البابا ومن المجلس كما فعل من قبل ، وقبل الشروط وأبجر مرة أخرى . ووفد على والده الإمبراطور الذي وافقه بمحض إرادته ، بل لقد أقر بما ارتكبه في الماضي من سوء ، ورغب في الخضوع للبابا وإعادة ما كان أخذه منه ، والتمس عفو عنه ووضع نفسه بين يديه .

وعاد الابن بهذا الاتفاق إلى البندقية حيث عم السرور من جراء جواب الإمبراطور الطيب ، وجهزوا أسطولا كبيرا رائع التسليح ركب فيه أكبر رجالات البلد ومأوؤه بالعدد وجميع الضروريات اللازم حملها لسيد عظيم مثله ، وجاءوا إلى مدينة أنكونا حيث تلقاهم الإمبراطور لقاء كريما ، ودخل

السفينة بنفسه وشخص إلى البندقية حيث عومل معاملة رائعة جداً ، ومضوا به إلى كنيسة القديس مرقس ، ويقال إنهم وضعوه عند بابها منبطحا على الأرض حتى يمر البابا من فوقه ، ومن ثم كان ما أرادوا حيث خرج البابا من قصره ودخل الكنيسة بعد أن وطأ بقدميه الإمبراطور وهو يردد الآية القائلة .
Super aspidem et basilisum ambulabis etc.

فأجابه الإمبراطور : « ما قيل ذلك لك ، ولكن قيل للقديس بطرس » .
فرد عليه البابا قائلا : « ما قيل للقديس بطرس فهو لي ، وما قيل لي فهو للقديس بطرس » .

ثم أنهضه ومنحه بركته ، وسأله الإمبراطور العفو والمغفرة ، واعترف بأنه أخطأ فسأحه البابا ، وفي الحال رد الإمبراطور إليه جميع المتناكسات الكنسية التي كان قد استولى عليها .

ظل الإمبراطور في البندقية عشرة أيام وسط مظاهر الفرح الكبرى ، وقام الدوج بمواقفة البابا والإمبراطور إلى أنكونا في أسطوله وبصحبته جميع كبار لوردات الإقليم .

وفي أنكونا أقام الإمبراطور استعدادات ضخمة لاستقبالهم ، إذ كانت المدينة بشغورها إحدى ممتلكات الكنيسة الغنية ، وبقي الجميع بها عشرة أيام أخرى وهم في احتفال غادر بعدها البابا والإمبراطور إلى رومة ، وعاد الدوج مع جماعته إلى البندقية .

ومما يروى أن البابا والإمبراطور طلبا إلى الدوج أن يسألها ما يريد منهما لما أداه من عمل جليل ، وأخذوا العهد على أن يجيباه إلى ما سأل ، فالتمس

الدوج منهما الحق في أن يستعمل رنكهما فأجاباه إلى ما التمس ، ولا يزال
الدوج إلى اليوم يستعمل الرنوك البابوية والإمبراطورية .

نم استأذنهما الدوج بعدئذ في الرواح ، وانصرف إلى البندقية حيث صور
القوم تاريخ هذا الخبر تصويراً عظيماً في قاعة كبرى هي أعظم وأغنى قاعة
في القصر المطل على البحر . وهذا هو السبب الذي من أجله يقيم البنادقة هذه
الاحتفالات يوم الصعود لأنهم في مثل هذا اليوم أحرزوا النصر ، ثم منحهم
البابا الغفران الكامل للخطيئة والعقاب والذي لا ترحل السفن حتى تناله .

الفصل العشرون

صفة البندقية ، الجندول . كنيسة القديس مرقس . الحكومة . التجارة .
ثراء الشعب . الترتيبات الصحية . دقة العدالة . الترسانة .
اليارستان . أملاك البندقية .

.....

مدينة البندقية شديدة الازدحام بالسكان وتقع وسط إقليم كبير ، وبيوتها
شديدة التلاصق بعضها ببعض ، ويقال إن عدد قاطنيها يبلغ سبعين ألف نسمة ،
أما الأجانب والعمال - ومعظمهم من الرقيق - فكثيرون جدا .

وليس للمدينة أسوار ولا قلاع غير هذين الحصنين القريبين الميناء لأن
الدفاع عنها إنما يكون بحرا ، فيمد القوم سلسلة من أحد الجانبين إلى الآخر
ليكونوا آمنين على أنفسهم ، ولو حدث أن هاجم العالم كله المدينة لا كفى
البنادقة بإغراق سفينة واحدة بين الحصنين في القناة وإذا ذلك بصبحون في
أمن وسلام .

والمدينة مبنية على البحر ، وتشققها قنوات مائية صناعية تستطيع القوارب
السير فيها ، كما توجد في بعض نواحيها شوارع يستطيع الناس المشي فيها سيرا
على الأقدام ، وتوجد الجسور في الجهات التي تكون القنوات بها أضيق من أن
تحترقها القوارب ، وإذا كان لكل فرد من قشالة دابة للركوب فإن لكل بندق
هنا قوارب نوعيها مهمتهم التجديف والقيام على خدمته ، وإذا كنا نتفاخر
بالجواد الجميل والوصيف الأنيق البزة فإن البنادقة يتباهون بقواربهم التي

ببالتون في المحافظة عليها ، فيعلمونها تعاقبا جيدا رزودوها بالحشايا والأرائك
حتى ليستطيع الفرد أو الإثنين أو أكثر من ذلك السفر بها .

والطرق التي توصل المدينة بالأرض الرئيسية صناعية ، ولا تستطيع
الوصول إلى هناك سوى القوارب الصغيرة لعدم كفاية الماء اللازم للقوارب
الكبرى ، كما أن القنوات ضخمة ورملية القاع ، ومن ثم لا تستطيع السفن
الكبرى ولا الدواب دخول المدينة أو مغادرتها لإحاطة الماء بها من كل جانب ،
ومن أجل هذا يقولون إن البندقية أجل حصن في العالم ، فتذهب القوارب
إلى الداخل لجلب الضروريات وإحضار مياه الشرب .

ويستعمل البنادق سفنا كبيرة خاصة ويمأوونها بالرمل ويوجد في قاعها
فجوة ذات غطاء ، فإذا دخل القارب نهرا عذب المياه رفعوا الغطاء وملؤوا
القارب إلى أقصى غايته ثم أحكوا سداؤه ، وتلك هي طريقتهم في حملهم للمياه
اللازمة لهم ، وتوجد في جميع بيوتات البندقية صهاريج تخزين المياه ، كما توجد
صهاريج عامة من الطوب فوق البحر قد شيدت على صورة معينة يستحيل معها
على الماء - كما شاهدت في صهاريج بيت المقدس - أن يأسن أو تحبث رائحته
كما يحدث في بعض الأماكن الأخرى ، غير أن وصف جميع أساليبهم في
تخزين المياه أمر يطول شرحه .

والمدينة غاصة بالكنائس والأديرة الفنية التي بالغ القوم في الإسراف على
تشبيدها ، ومن أعظمها وأضخمها كنيسة القديس مرقس التي هي كبرى الكنائس
بأجمعها وأعظمها كلها ، وهي ذات قباب على النمط الإغريقي ومغطاة من خارجها
بالرصاص وذات سقف مذهب ، كما أن داخلها محلى بالفيسفساء وكذلك أرضها ،
وإن كان ما بأرضها من الفيسفساء أكبر حجما وأكثر ألوانا ، ويوجد عند

باب المدينة الرئيسى قوس نصر عليه أربعة جياذ ضخام من النحاس المطلق بالذهب الكثيف ، وقد نقلها البنادقة إلى هذا المكان تخليدا للنصر الذى أحرزوه يوم استيلائهم على القسطنطينية (١١٩) .

ويقوم قبالة هذا الباب ميدان فسيح أكبر من ميدان مدينة المعسكر ، رُصِّت أرضه بالأجر ، وأحيط بدور متعددة الطوابق والأروقة ، وينعقد السوق هنا يوم الخميس من كل أسبوع وهو سوق أكبر من سوق Torro del Campo .

ويوجد على أحد جانبي هذا الميدان برج (١٢٠) شاهق الارتفاع يعادل برج أشبيلية طولا ، وعلى قته صليب من الذهب الرقيق ، وهو من أجل ما تراه العين حتى إن العين لتطالعها فى ضوء الشمس من مسافة ثمانين ميلا ، وفيه من الأجراس ما يذق أحدها للقداس ، وثانيها لصلاة الغروب ، وثالثها لدعوة المجلس ويسمونه بنافوس المجلس ، ورابعها عند تسليح الأسطول ، ولكل هذه النواقيس رنة تميزه عن سواه .

ويوجد على الجانب الآخر من هذا الميدان فى مواجهة البحر عمودان كبيران باسقى الارتفاع ، يعلو أحدهما تمثال القديس جورج مع التنين ، ويرقى الآخر تمثال القديس مرقس حامى المدينة وراعيها ، وقد جرى بهذين التمثالين من القسطنطينية أيضا ، ويقولون إنه لا يوجد ثم أحد يستطيع ارتقاءهما ، غير أن قسثاليا تسلفهما وبلغ ذروتها ، وإذ ذاك أمر البنادقة بأن ينال كل ما ينبغى فلم يطلب لنفسه شيئا ولكنه جاء إلى بعض سلام على مقربة من العمودين ، والتبس ألا ينفذ القضاء فى أى مجرم مهما بلغ جرمه لو أنه لجأ إلى هذه السلام مستجيرا ، غير أن المحتالين الآن يلعبون الميسر هناك ويقترفون غير ذلك من المنسكرات وهم السنة تلهج بالثناء على الرجل الذى أتاح لهم هذا الضمان .

ويوجد بين هذين العمودين وبين كنيسة القديس مرقس قصر الضيافة الذي يقيم الدوج مع أسرته في ناحية منه ، أما بقية القصر ففتوح لكل من أراد مشاهدته ، وكذلك القاعة الكبرى التي ذكرت آنفا كيف صورت بها قصة البابا والإمبراطور والتي يعقد بها المجلس اجتماعاته ، كما توجد قاعات أخرى رائعة التأثيث حيث يجلس القوم للفصل في القضايا ولهم سجنهم ، وتوجد تحت الأقواس - تجاه الميدان الكبير - بعض أحجار معينة من الرخام منها ثلاثة ملونة لشئق النبلاء ، والبقية لشئق الأفراد العاديين .

ويترك الأجانب في هذه الأروقة أسلحتهم ، كما توجد بها بعض جلود الحيوانات المسماة بالتمساح^(١٢٢) التي يبعث بها سلطان مصر إلى الشئور باعتبارها أكثر الحيوانات مدعاة للفرح ، والواقع أن هذا القصر رائع جدا .

وللبنادقة قانون يحرم على من ليس بالنبييل أن يصير دوجا أو يتولى مركزا في الحكومة، وهو قانون يلتزمونه على الدوام ولا يحدون عنه إلا لاسبب خاص ، فإذا انتهى العشاء من كل يوم أحد دقوا ناقوس المجلس في ذلك البرج الذي تحدثت عنه ، وحين ذاك يلتئم شمل كافة النبلاء ويتذاكرون جميع ما جرى خلال ذلك الأسبوع من مسائل حكومية وإدارية وقضائية ، غير مستثنين من ذلك سوى المسائل التي يتناولونها في اجتماع المجلس السري لاسيما شئون الحرب .

ويتألف هذا المجلس السري من الدوج والمندوبين ، وتبدو الجمعية أشبه بالبلاط الملكي ، وتوجد عند أبواب القصر القوارب العدة، ويقف الوصفاء في حلهم الزاهية ، وإذا ذاك يخرج النبلاء من القصر ويذهبون إلى بيوتهم .

وتقضى أوامر الحكومة بأن يقصر شراء التبغ أو الخبز أو القمح أو الزيت على الأجانب والفقراء فقط دون المواطنين ، حيث تباع لهم بأثمان بخيل معها أنها لا تدر ربحاً لأولئك الذين جلبوها من أطراف الدنيا ، ولكن الحكومة تقولى الدفع بدلاً منهم حتى تتوفر لهم ، وحتى لا يغدو الغريب أو الفقير فى حاجة إليها ، والواقع أننى لم أرى فى بلد ما حكومة توفر لشعبها ضرورات الحياة وترخصها له كما تفعل هذه الحكومة ، ويبدو أن الفواكه التى يأتون بها من أسبانيا تستهلك فى البندقية طازجة ورخيصة كما لو كانت فى بلدنا ، وكذلك القول فيما يجلبونه من بلاد الشام ، وكذلك لو أراد المرء شيئاً من الهند لأن البنادقة يتصلون بحراً بجميع نواحي العالم ، وهم يتوردون مع تجارتهم أشياء أخرى لإعالة الأهلى .

والبنادقة فاحشو الثراء ويتاجرون فى أشياء كثيرة فىكون دخلهم كبيراً من الربح البسيط ، كما أنهم يبيعون ما يبيعون بثمان معقول .

* * *

والبيوت رائحة جداً ، شاهقة الارتفاع ، متعددة الطوابق والمداخن ، ومجهزة بدهاليز ونوافذ عدة مظة على الشوارع ، وهى محلاة بالذهب والرخام واللون الأزرق ، ويفخر الناس القريبون بل والبعيدون بكونهم بنادقة مواطنين لى ينعموا بعطفها كما هو الحال مع ملك قبرص ومركز مانتوا ومركز مونتفرات الذين لهم — كما لسائر كبار اللوردات والفرسان — قصور رائحة فى المدينة .

ولقد رأيت بها كردينال قبرص — أخا الملك — وكان نازلاً ببيت شقيقه وهو إذ ذاك على وشك الرحيل إلى قبرص ، وكان القارب المعد لنقله

مربوطا إلى باب منزله الذى قابلته به وجُبت معه المدينة ، كما يوجد غيره كثير من القوارب — ما بين صغير وكبير — قد شدت إلى أبواب بيوت أصحابها .

وبالبندقية كثير من الأديرة الرائعة العظيمة التى تزيد على ثمانين ديرا للرجال والنساء وأكثر من خمسين كنيسة ؛ وتحفل بجانب كبير من الآثار المقدسة وأجساد المباركين كجثمان القديسة هيلينا والقديسة مادينا وساق القديس كريستوفر من الركبة إلى القدم ؛ هذا إلى جانب كثير من عظام الطاهرين وما لا يحصىه العذ منها مما أحضره البنادقة معهم من القسطنطينية حين استيلائهم عليها .

وطائفة العامة غنية على غير المألوف فى هذه الطائفة ، وهذا أمر قد تبينته أثناء السكرنقال فى حفل تنكرى أقيم بقصر الدوج ، فقد جاءت بالبحر سفينتان كان من المفروض أن تقل إحداهما الإمبراطور الذى وفد مع ثلاثين فارسا فى أثوابهم الموشاة الزاهية ، وجاء فى السفينة الأخرى الأستاذ الأ كبير لفرسان رودس الذى تدثر بالقطيفة السوداء ، وكانت السيدات اللاتي استقبلنهم قد تسربلن بالحرير المطرز ، وتحلن بالجواهر الغالية ، والحق أننى رأيت بعضهن وقد لبسن ثلاثة أثواب مختلفة فى الحفل ولم يمدّ هذا الأمر منهن إسرافا ، وكن جميعا من أهل الطبقة الوسطى فى المدينة وآسن من الطبقات العليا أو الغنية ، ومع ذلك فلم يكن فى الإمكان جعل الحفل أحسن مما هو عليه .

والمدينة نظيفة للسير بها نظافة الغرفة الرائعة ، هذا إلى أنها مرصوفة ومبلطة ، ولا تستطيع دابة على أربع أن تدخلها ، فإذا كان الشتاء لم ير للماثر فى شوارعها ومن ثم فلا يوجد الطين ، ولا يثور البغار إذا حلّ الصيف ، وتعلو مياه البحر هنا ثم تنساقط — وإن كانت أقل مما هى عليه فى الغرب —

هنا فتزبل القذارة من الأماكن المقدسة وإلا كان من المستحيل العيش مع
الفتنة ، ويقولون إن الجو يكون موبوءاً في بعض الأحيان ولكنهم يشعلون
النيران صيفاً وشتاءً ويحرقون كثيراً من العطور ، ويحمل الناس معهم العطور
والتوابل التي تطحن في الشوارع وتذر فيعقب الجو بأبدع رائحة لذيذة .

ولم يكن مسموحاً للحكام حتى وقت قريب - بحيازة الأملاك في البلد ، غير
أنه لما ازدادت قوة السادة بحراً وبراً واكتسبت ولايات كثيرة سمح لهم
بالاستقرار في الأرض الأصلية ، فإذا دعت الضرورة الناس للذهاب هناك
للترويج عن أنفسهم كان لهم ذلك ، كما أنه إذا انتشر أحد الأوبئة استطاءوا
أن يجدوا مكاناً يفرون إليه .

ولا يفادر الدوج المدينة لأي سبب من الأسباب إلا إذا ذهب إلى دير
القديس جورج وهو على مرمى حجر من البحر من قصره ، فإذا عم المدينة
الوباء^(١٣) انفلت إليه ، وقد حدث ذات مرة أن مضى أحد الدوجات إلى الدير
فراراً من طاعون اجتاح المدينة ، وانطلق كل شخص إلى الداخل فلم يبق بها
سوى الفقراء ، وحينذاك جاء إلى الدوج أحد أقاربه وقال له :

« سيدى اللورد ، إن لديك الآن فرصة لم تتج لشخص ما ، فعندك ثروة
البندقية ، وقد غادر المدينة جميع كباراتها ولم يتخلف بها سوى الأغراب
والفقراء ، فافعل ما بدالك واحتجن الثروة وضع التاج على رأسك ، ولأقرب نفسك
بملك البندقية ، ويظل التاج على رأسك دائماً أبداً » .

فلامه الدوج على ما قال لوماً شديداً وبقي الأمر سرا مكتوماً ، غير أنه

بعد مدة وجيزة نال البعض الدوج بالسوء في كلامهم ، فكرر قريبه النصيحة التي أزعجها إليه وقال « إنها تجديه نفعا ما دام لن يصير ملك البندقية » ، فغىء بهذا القريب أمام المجلس ليعرف أعضاؤه صدق ما قال ، وضيقوا الخناق عليه فاعترف بكل ما حدث ، ولإذ ذاك مضى السادة أعضاء المجلس إلى الدوج وسألوه عما إذا كان حقا ما قيل ، فأنبأهم بأن الأمر جرى كما قال صاحبه ، فقتشاور الأعضاء فيما بينهم ، ثم بعثوا في استقدام الدوج وشكروه على إخلاصه لوطنه ، ولسكنهم التمسوا منه — وقد لاذ بالصمت في مسألة كانت تنطوي على خطر كبير للدولة — أن ينتظر مئوبتهم ، ثم إنهم أنفذوا أمرهم بإجزال المنح الكبيرة على زوجته وأبنائه ، ولسكنهم أمروا بقطع رقبتة حتى لا يجرؤ أحد ما على كتمان أمر يمس السلامة العامة ، وإذ ذاك جمعوا في القاعة الكبرى التي ذكرتها جميع أسلحة الدوجات منذ البداية حتى وقتهم هذا ومعها أسلحة الدوج الذي قتلوه وغطوها بالقطيفة السوداء .

ويفخر البنادقة بأنهم أوقعوا عقابا ظل عالقا بالأذهان ، فقد كان هناك مواطن يفاوض في أمر معين ضد المدينة فأمروا بقتله وأحالوا داره مسلخا ، وأقاموا له تمثالا معلقا بالسلاسل .

وتم آخر قتلوه لجرم اقترفه وتركوا بيته بلا باب يعلق عليه ، وأصبح لزاما على من يعيشون هناك بذل أقصى ما يمكنهم بذله لصالح البلد .

وفي أثناء وجودي بها تقوّلوا شيئا ضد كابتن كونت « كارمينولا » (١٧٤) وزعموا إنه ضالّ في مؤامرة ضد المدينة ، فاستقدموه إليهم بعهد أمان ، ثم ألقوا القبض عليه وانتزعوا لسانه عن آخره وتفننوا في تعذيبه بوسائل أخرى حتى

مات فدفنوه فى كومة روٲ ، ونصبوا عليه حجراً نقشوا عليه هذه الكلمات :

« هنا يرقد الخائن كونٲ كارمينولا »

وقد حدثت هذه الأمور وأمثالها فى تلك المدينة

* * *

وبالبندقية داراً صناعة لإحداها للسفن هى أجل واحدة فى الدنيا ،
والأخرى للدفعية وكل ما يلزم الملاحة ، ويصل البحر إليها ومن ثم تستطيع السفن
الرسو هناك بعد اجتيازها الحصنين ، وقد أنبأنى القوم أن لهم بالبحر وفى
مخازنهم من أغربة الحرب والمراكب التجارية ثمانين واحداً إلى جانب سواها
من السفن ، وقد حدث ذات يوم أثناء عودتى بعد سماع القداس فى كنيسة
القدس مرقص أن رأيت قرابة عشرين رجلاً يدخلون الميدان ، وقد حمل بعضهم
المقاعد وآخرون الموائد وغيرهم الكراسى ، وكان بعضهم يحمل حةائب كبيرة مملوءة
بالنقود ، وإذ ذلك ضربت طبلة دون الجرس الأكبر الذى يسمونه « بجرس
الجلس » ، ولم تمض ساعة حتى كان الميدان قد اكتظ بالرجال الذين قدموا
وأخذوا أجروهم وانصرفوا إلى دار الصناعة .

فإذا عبر المرء الباب ألقى على جانبيه شارعين يفصل البحر بينهما ، وعلى
هذين الجانبين نوافذ البيوت مظة على دار الصناعة وقد خرج غراب يقطره
قارب ويتناول الناس من فيه من النوافذ حبال السفن والطعام والأسلحة
والأنعام والدافع ، وهكذا يأخذون من كل جانب كل ما يحتاجونه ، فلما وصل
الغراب نهاية الشارع كان على ظهره جميع الرجال الذين يحتاج إليهم مع المجازيف
وامتلاء الغراب عن آخره ، وعلى هذه الصورة جاءت عشرة أغربة تامة التسليح
وذلك فيما بين الساعة الثالثة والتاسعة . ولا أعرف كيف أصف ما رأيت هناك
هناك سواء فى طريقة التكوين أو فى الناحية الصيرفية ، ولا أحسب أن فى العالم

شيئاً أروع من ذلك ، ولو أراد البنادقة إظهار قوتهم الحربية فإن أعداء الدين في هذه الناحية لن يستطيعوا - في نظري - أن تكون لهم سفينة واحدة في البحر أو على الشاطئ ، ولن يجرؤوا على تحدّي مثل هذا الخصم العنيف .

كان في الأزمنة السالفة لبضعة أسابيع قلائل أو حتى بضعة أيام صيد لا يستخرج الصيادون فيه إلا الأطفال الموتي من شباههم وهذا جاء - كما يقولون - من أن التجار كانوا يظنون منفصلين عن زوجاتهم زمناً طويلاً ، فتدعوهم الرغبة الجسدية إلى الاتصال والحمل ، فإذا وضعن وأردن إنقاذ سمتهن بادرن بإلقاء أطفالهن من النوافذ إلى البحر لهذا يظل السكان مهجوراً ، ولذلك تشاور الحكام - نظراً لهذه الجرائم البشعة - فيما بينهم وأسسوا مستشفى^(١٢٥) كبيراً غنياً بُني بناء جميلاً وزودوه بمائة مرسعة للأطفال ، والآن فإن اللاتي يردن ستر فضيحتهن يأخذن أطفالهن هناك ليغني بتريتهن ، وكذلك حصل البنادقة من البابا على مرسوم ينص على أن كل من زار هؤلاء الأطفال نال شيئاً معيناً من الغفران ، ومن ثم فإن الرجال والنساء يذهبون لزيارة أطفالهم بحجة نيل المغفرة ، ولا شك في أن هذا عمل ينطوي على التقوى العظيمة ، ويُنظر إليه بالاحترام العظيم .

وفي هذه المدينة ينزلون العقاب الرادع بمن يحمل سلاحاً مهما كانت حجته ، وإن خف العقاب قليلاً لمن يحمل السلاح في مجلس الحكم .

ويؤقرّ الناس المستنون توفيراً عظيماً وببذل القوم لهم الاحترام الكبير ، وحينما ينتخبون « الدوج » يتجردون عن الميل والهوى ، ويؤثرون أصلح الرجال لهذا المنصب على شرط أن يكون نبيل المولد ، فإذا انتخب لم يخلعوه قط من منصبه إلا الجريمة يقتربها ، ويجرون عليه راتباً قدره ثمانية ألف دوكات

يكون معاشا لأسرته ، أما بقية المصروفات فتتحملها عنه الحكومة ، ولا يستطيع أن يجاوز ماقدّر له ، كما أنه لا يستطيع أن يحكم على أحد أو يطلق سراح فرد ما دون موافقة أعضاء المجلس .

واشتهر البنادقة بشرف المعاملة ، ثبت لى ذلك بالتجربة ، وإذا فكر أحدكم فى شجب عهد أخذه على نفسه فى مسائل نقدية آثروا دفع دينه على ارتكاب مثل هذه الخفاقة ، ولست أعجب من أناس يحولون حول العالم أن يراعوا هذه القاعدة وإلا لم يستطيعوا الرحلة آمين ، ومن عادتهم أن يرسلوا كل سنة مواطننا من مواطنيهم الأشراف الكرام المولد إلى كل من المدن الداخلية والواقعة على الخليج ، ويرسلون مثله كل عامين إلى الأقطار الواقعة فيما وراء البحار والبلاد القاصية ، وحدث ذات مرة أن بعثوا بالبودستا إلى جزيرة إقريطش التى نسميها كانديا ، ثم أنفذوا بعد سنة محققا على مألوف عادتهم ، فأجرى تحقيقا دقيقا انتهى به قبل عودته من الجزيرة بقطع رأس البودستا ، ومن ثم فإن الولايات والمدينة مراقبة جيدا ، وما كان لامرئ فى أى بقعة من البقاع التابعة لهم — حتى ولو كانت فى أقصى أطراف الأرض — إلا وخيل إليه أنه فى البندقية ذاتها .

وتتمتع المدينة بحكومة قوية جدا مما أدى إلى شدة رخائها حتى أصابت من الثروة ما يجاوز الحد ، ويحلب مواطنوها إليها ما جاءوا به من منتجات الشرق فى وفرة بالغة وكثرة عظيمة ، ويفعل فعلهم أهل الغرب حتى ليخيل أن العالم بأجمعه فى يمين البنادقة .